عقرون 94

مكتبة اليمن الإلكترونية

توثيق/

فايز عبدالله مصلح محيي الدين

عقرون 94

رواية

عمار باطويل

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: آذار/مارس 2017 م - 1438 هـ

ردمك 978-9948-446-00-0



THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبو ظبي هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف (961+_1) 785107
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف (961+–1) 786233

وما ألفنا كتابنا هذا وكثيراً مما ألّفنا إلا ونحن مغرّبون مبعدون عن الموطن والأهل والولد، مخافون مع ذلك في أنفسنا ظلماً وعدواناً.

ابن حزم الأندلسي

-1-

السماء ملبدة بالقلق. قلق يثير الرعب في القلوب، وقلبي يرتجف كلما رفعت بصري إلى السماء، أعاين هذا السواد الحالك المخيف وكأن السماء سوف تطبق على الوادي وساكنيه من الإنس والجن. في هذه الأجواء الملبدة بكل أنواع الكراهية، والحرب المقلقة أحدث نفسي هل ستطبق السماء على الأرض، وهل عُجِّل العذاب؟ يا إلهي ألطف بعبادك في هذه البلاد التي تنال نصيباً من عذاب البشر ووعيدهم. يا الله لا تعجل بالعذاب وكوارث الحروب. يا رب ما الذي تخبئه أقدارك ومشيئتك لعبادك الضعفاء؟

في هذه الليلة، السماء والأرض متدانيتان ومتقاربتان من بعضها البعض. أما البشر فقلوبهم مشحونة بالكراهية والبغضاء. لماذا لا يكون الشمال والجنوب كالسماء والأرض متبعادين لا ينال أحدهما من الآخر، لماذا لا يكونا كالسحب عندما تسقي الأرض بالماء وليس بحمم بركانية تصب على رؤوس الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة؟

أنزوي بنفسي في أحد أركان البيت أصلي لله بأن يلطف بنا في هذه الليلة من خطوب الزمن، وأن يروي بلادنا بسلام دائم كسلام سيدنا إبراهيم عندما قُذف به في النار ولم يصب بأذى لأن السلام حلّ عليه من رب العباد. يا رب إنّا في انتظار سلامك وبردك، فالبشر لا سلام منهم. فهم الآن يحشدون كل قذاراتهم متجهين إلى حرق البلاد والعباد بدون رحمة. أنا في هذا الوادي أشعر بالموت يدنو

منـي كلما سـمعت عن أخبـار الحرب، والقلـق يقرع قلبـي على أهل عـدن التي تتسـاقط عليهـا القذائـف وتقصفهـا الصواريـخ. صواريخ القبيلـة، الجيش، وصواريـخ من عاد مـن المجاهدين الذيـن توعدوا الماركسيين في جنوب اليمن بالتنكيل والسحق. ولكن لا أحد يموت إلا النسوة والأطفال الأبرياء، أما الماركسيون فتحميهم جيوش أخرى ومضادات للصواريخ.

قنـاة (إم بي سـي) هي القنـاة الوحيدة التـي تنقل لنـا آخر أخبار الحـرب بالصوت والصـورة. فبعد كل مغرب مباشـرة نتجه إلى بيت جارنا الوحيـد الذي يملك (الدش) ونشـاهد الأخبار. لم يمضِ على الحـرب إلا شـهر، وهنـاك مـن يقول بـأن الحـرب سـتنتهي بانتصار الشـمال، والبعـض يذهـب بـه التخمين إلـى العكـس، وأن الجنوب سـوف ينتصـر والذي قد انتصـر على الشـمال في معارك سـابقة قبل الوحدة، فهـو الجيش الأقوى فـي المنطقة والبعض يقـول بأنه أقوى من جيش إسـرائيل. أما جارنا الذي نجتمع في بيته فيقول إن الحرب سـوف تحسـم بنصر قوات الشـرعية لأنهم الأكثر عدداً. وجلس يعد مكونـات الجيش الشـرعي، جيش الدولـة، والقبائـل، والمجاهدين، ثم صمـت، فإذا بصـوت والد أيـوب الملقب بكاسـترو وهـو يقول: والأطفال الذيـن يجرونهم إلى المعركة. فضائـح.. فضائح وراء هذا الجيش الشرعي.

كلام كاسـترو أغاظ جـاره الذي يبدو بأنـه مع الشـرعية ويتهمه البعض بأنه يعمل بالسر مع نظام الشرعية.

سـيل بشـري عظيم لن يقـف أمامـه إلا جيـوش مضاعفـة لهم.

الهزيمة تبدو أكثر للجنوب. الأجواء ساخنة في الصيف، والجبهات أكثر سخونة، وأنفسنا أكثر قلقاً، والحياة في الوادي تضيق برغم اتساع المكان. طوابير السيارات على محطات البنزين والغاز، أما الكهرباء فلساعات محدودة من بعد المغرب إلى الحادية عشرة ليلاً.

في الصباح يتسابق أهالي الوادي على برادات الماء لتعبئة ثلاجاتهم الصغيرة بماء بارد يقلل من حرارة الصيف اللاهب. كنا نبحث عن أبسط الأشياء في الوادي، ولا نحصل عليها بسهولة. فالدواء شحيح، والناس طابور على الحياة التي لا يجدونها.

في أحد الأيام، قبل الظهر، ذهبت إلى مجلسنا المعتاد تحت الشجرة، شاهدت والد أيوب (كاسترو) وهو متربع في المجلس يحكي عن الغدر وأن الجنوب لن ينهزم في الحرب إلا بالغدر والخيانة. سمعت شخصاً آخر أتى من القرية المجاورة لقريتنا التي تقع بالقرب من وادي عقرون، وهو مصر على رأيه بأن الحرب سوف تُحسم لصالح الجنوب، وأن الجنوب يملك صواريخ اسمها (كانت مدينة). وقال:

- إذا أُطلق صاروخ واحد على صنعاء فسوف يدمرها ويستسلم علي عبد الله صالح، وسوف تنسحب بقية الجيوش المتقدمة في الجبهة أثناء تدمير عاصمتهم صنعاء».

كان كاسترو أكثر حماساً عندما سمع بهذه الحكاية التي رفعت من معنوياته: أيوه، صح.. أنا أيضاً سمعت عن هذا الصاروخ الذي يسمونه (كانت مدينة)، قال كاسترو، وهو يمسح على شنباته من

الأعلى إلى الأسـفل في حالة يتداخل فيها الشـك باليقيـن، والحقيقة بالخيال.

أثناء مشـاهدة نشرة أخبار إم بي سـي بعد المغرب شاهدنا مطار عدن وهو يحترق بسـبب صاروخ أطلق من إحدى القواعد العسكرية المواليـة للشـرعية. وقبل قصـف مطار عـدن بأيام كانـت هناك جثث تعرض على شاشة التلفزيون لأطفال ونسـاء قُتلوا في عدن بصواريخ الشـرعية التـي لا ترحـم الإنسـان فتفتك بـه. فبعدما شـاهد كاسـترو المشهد. قال:

– صـاروخ واحـد علـى صنعـاء وسـيجعلها رمـاداً مـع ساكنيها.

فكان رد جاره الكبش:

– هؤلاء بشر لا يستحقون كل هذا الدمار. اتَّق الله يا رجل.

كاسترو:

– أين هي الإنسانية مما يحدث في عدن؟ الدم يقابله دم.

ولم يدع كاسترو جاره الملقب بالكبش يرد فقاطعه:

– الخونـة هم وحدهـم المتعطشـون للدمـاء. أشـعلوا نيران الحرب عندما غـدروا بلـواء باصهيب الجنوبـي المتمركز في ذمار. رصاصات الغـدر انطلقت من صنعاء ولن تكون الأخيرة. فمن أعتاد على الغدر سـتكون سياسته في الحياة الغـدر دائماً. الدمـاء الغـادرة جرثومة فـإذا امتزجت بدماء الإنسـان سـتكون بعدها أجيال تحمل الجرثومة نفسها، ثم تتوارثهـا، إن لـم نتخلـص منها في الحـال. عدالة السـماء

سوف تسحقهم.

قام كاسترو بعصبية، ونفض يديه من بقايا الرماد، ووضع التنباك في إحدى زوايا شدقه وخرج من المجلس متوعداً جاره الكبش بالنصر للجنوب، وقال: مساكين أهل صنعاء يعتقدون أن مطر السماء رحمة من الله على أرضهم! ألا يعلمون أن السماء تبلّلهم بدموعها وهي شاهدة على الغدر بجنود لواء باصهيب الأبرياء في ذمار؟ من زمن أبرهة الأشرم وصنعاء تغدر بالعروبة.

لأول مرة أرى كاسترو يبكي بعد هذه الكلمات. وتمتم: آمنوا بالوحدة فكان مصيرهم الذبح بلا رحمة.

لست أدري هل أصاب الناس الجنون أو الغباء الأعمى في الحروب عندما يذهبون بإرادتهم إلى مخازن الأسلحة لنهبها وتنفجر فيهم وتحولهم قطعاً بجانب قطع الأسلحة، ويسمع كل الناس عبر التلفزيون أو الراديو هذا الجنون، ومرة أخرى نسمع عن حادثة مماثلة ويتكرر المشهد بصورة مأساوية في مدينة أخرى من مدن اليمن، وتكون النتيجة نفسها، تتطاير الجثث وتمتزج الأشلاء بقطع الأسلحة وتتكون مادة مشوهة من لحم البشر وقطع الأسلحة وتتناثر معاً وتكون سحابة سوداء في أرجاء المدينة وأيضاً في نفوس أهالي الضحايا وأصدقائهم. الحروب تعلم الجنون ولولا هذه الحروب التي تنتج كل أنوع الجنون لما ذهب الناس إلى حمل السلاح أو نهبه ليكون مصير حامله الموت حتماً.

بدأت الحرب باسم الشرعية وتم تدمير المدن وقُتل الناس بهذا الشعار. يقول كاسترو:

– إن من يشعل الحرب هو الطرف الأقوى المغرور ولا يريد أن ينصاع إلا إلى صوت القذائف.

للحروب في العالم صورة واحدة لا تختلف كثيراً، فعندما تحل الحروب في المدن تنتشر فيها كل أنواع القذائف التي تنطلق إلى الأمام ولا تميز بين الرؤوس أو الأجساد التي ترتطم بها ويكون الضحية الأطفال والنساء والشيوخ وتنجح مهمة القذيفة في زهق الأرواح باسم الحرب أو باسم الشرعية التي تشرعن القتل.

السماء صافية برغم أجواء الحرب، كأن لا علاقة لها بالأرض التي تحترق فيها القلوب وتتفحم فيها الأجساد. السماء تتبرأ من أعمال البشر في الأرض، للسماء ملكوت آخر لا نعرف سره، فكل الدمار يكون على الأرض والسماء تسبح في عالم آخر بعيداً عن عالمنا البغيض. كم تمنيت أن أصعد إلى السماء وأعيش هذا الطهر والنقاء، ولو لساعات قليلة تنسيني شيئاً اسمه الحرب وقتل الإنسان للإنسان. في هذه اللحظات المضطربة شعرت بالشوق إلى من رحلوا عن هذا الكون ولم يتعذبوا بأخبار الحروب، ورائحة الدماء التي تزكم الأنوف، ولم يشاهدوا الأشلاء التي تأكلها الغربان. فقد هيجني (المدرّف)(*) الذي لم يشغل باله بالحرب، وكأنه خارج كوكبنا، وهو يصدر نغمات ممتزجة بالوجع والشوق. هذا الفنان القابع في عمق الوادي تحت شجرة المشط، معتمراً عمامته وماسكاً (بالمدروف)(**) في صورة مؤثرة تحتاج إلى فنان يرسم للأجيال هذه الصورة المدهشة

(*) المدرّف: العازف على الناي.

(**) المدروف: الناي.

في الحياة التي تمحو مؤقتاً شعورنا بالدمار. تفرقت آراء الناس حول هذه الحرب، فهناك من يقف مع الشرعية، ويعتقد بأنها أصلح وأفضل من حكومة الحزب الاشتراكي في الجنوب، وهناك من يقف ضدها لأنهم يعتقدون بأنها شرعية بلا شنبات كما قال كاسترو. فالكبش دوماً يتهم كاسترو بأنه أكبر انفصالي في الوادي بسبب أفكاره التي لم يفهمها أو يقول إن أفكار كاسترو تزعجه ولا تروق له.

قبل أن تُحسم الحرب بأيام، كانت هناك أخبار تصلنا مفادها بأن المكلا سوف تسقط قبل عدن وأن قوات الشرعية أصبحت قريبة، وهناك تراجع وهزائم في الجبهات القريبة من مدينة المكلا. بعد أن شاع خبر اقتراب قوات الشرعية من مدينة المكلا وروج لها، شهدت مدينة المكلا نزوحاً جماعياً، الكل أصبح يتدفق إلى الأودية. ازدحم وادي دوعن بأهله الذين لا يعرفونه إلا وقت المحن والأزمات. ذهب البعض إلى ترميم بيوتهم القديمة التي هجروها لسنوات، والبعض سكن عند قريبه، والبعض الآخر سكن في بيوت المهاجرين في الخليج الذين هم أيضاً تركوا بيوتهم قائمة وحيدة تواجه الرياح.

في الصباح عندما كنت جالساً مع كاسترو، إذا بشخص يأتي مسرعاً يخبره بمقتل بن حسينون القائد الذي صمد في المعركة ببسالة. اهتز كاسترو في مكانه، كأن الموت دنا منه، شهق، ذرفت عيناه الدمع، صمت ولم ينطق بكلمة بعد الخبر، خارت قواه بعد ما كان هناك لديه أمل بأن صاروخ (كانت مدينة) سوف يحسم المعركة لصالح الجنوب.

سقط الكثير من الشهداء قبل دخول المكلا، وبعدما دخلت

العربـات العسـكرية المكلا وقف عسـكري من أبناء المكلا بسـلاحه الشـخصي يقاتل بشراسـة لا مثيل لها ذاع صيتها فـي الوادي وفي كل أرجـاء البلاد، ولـم يستسـلم إلا للموت. وقبـل أن يموت قتـل عدداً مـن جيش الشـرعية. سـمع كاسـترو بحكايـة هـذا الجندي الشـجاع فقال سـوف ننصب له تمثالاً وسط المكلا وسنسـميه تمثال (الجندي الشـجاع). سـخر منه جاره الكبش، وقال له كيف سـتنصب له تمثالاً وكل حكومتـك التـي تؤيدهـا قـد هربـت!! اختفـى صـوت النصـر للجنـوب.. تراجعت كل الأصوات إلا صوت كاسـترو الـذي ما زال يردد أن صاروخ (كانت مدينة) سـوف ينطلق ويحسم المعركة لصالح الجنـوب. ضحك الكبـش الوحدوي الذي سـخر من أمنية كاسـترو، وقال له:

- والله محـدّ بيدمـر الجنـوب إلا أفـكارك الانفصاليـة يـا انفصالي.

-2-

غبشة في كل صباح، تستقبلنا (الحيضان)[*] قبل أن تعانق خيوط الشمس سعف النخيل. تعتجن أجسادنا بهذه الحيضان وتربتها التي نتطهر بها، ففيها شفاء لنا من الأزمنة المنكوبة مثل زمننا هذا. نعمل في الحيضان معظم أوقاتنا من الصباح إلى الظهيرة، فالأرض تحتاج إلى أيادينا، لنحصد منها (الرمام)[**]، والقصب، والتمر، فكل هذه المحاصيل تضمن لنا دخلاً من المال. الأرض تجود لمن ينحني لها، تمنحه حياة متجددة، له ولكل الأجيال القادمة. فالأرض لا تغدر ولا تتخلى عن الإنسان الذي يمنحها حبه، وجهده، وعرقه.

عند نزولي إلى الحيضان يكون نصيبي الأكبر من معانقة الطبيعة. أمشي متجولاً بين أشجار النخيل، تصادفني أنواع من الطيور وأعشاشها، كأم صفير التي يميل لونها إلى الصفار ورأسها إلى السواد، وفي الكثير من الأوقات أرى عشها معلقاً على شكل دائري على أغصان الأشجار. وأيضاً المكحل الذي يميل لونه إلى الكحلي وحول عينيه سواد كأن أحداً رسم بالكحل على أطرافهما. تصادفني تلك الطيور بأشكالها وألوانها، وأصواتها، فتثير شعوري بالتفكير في حياتها وطبيعتها. تلهمني تلك الطيور من الحمام كـ (العول) و(السخاري) و(الخفرد) شيئاً من الوقوف على حياتها

(*) الحيضان: أحواض النخيل المنتشرة في أودية حضرموت.

(**) الرمام: حشائش السافانا.

وألوانها ومعيشتها وتحليقها في الأجواء، وذهابها وإيابها من شجرة إلى أخرى. فكيف تتقاسم تلك الطيور حياتها مع سكان الوادي من بشر وحيوانات؟ حتى (النوب)(*) في الوادي في وقت موسم جني العسل يكون على حواف الوادي مئات من (الجبوح)(**) مرصوصة كجنود أو كأنها مدافع ينطلق من أفواهها النوب بأعداد هائلة، تحلق على الزهور وعلى ثمر الأشجار. وعندما أجلس تحت هذه الأشجار أسمع طنين النوب، هذه الأصوات الصادرة من النوب لا تكون عبثاً بل لها معانٍ كثيرة ولها لغة خاصة بها لا يعلمها إلا خالقها الذي يسيِّر هذا الكون. أصوات الطبيعة تجعلني أصغي إليها، وأستفسر عنها، وأحياناً أستمتع بتلك الألحان الطبيعية الفريدة في الوادي.

في الحيضان أقوم بحرث الأرض، وتكريب النخيل، وأحياناً توسعة البدود التي توصل ماء السيول إلى الحيضان، والتي تسقي النخيل والزرع بعد انتظار طويل للمطر. وعندما أنتهي من ربط حزم الحطب المكون من أعواد وسعف النخيل اليابس، أقوم بوضعه على الأشجاب التي نضعها على ظهر الحمار لتمسك الحمولة من السقوط بعد ربطها بطريقة محكمة. خطوات حماري أصبحت تثير السخرية من عرجه، وكنت أشعر بخجل عندما أمر أمام الناس وحماري يعرج وهو محمل بالحطب أو بحزم الرمام. فالبعض يقول لي: حرام عليك تحمل الحمار بهذا الثقل وهو مصاب برجله. والبعض يحذرني بأن من يهين البهيمة سوف يُهان مع مرور الأيام.

(*) النوب: النحل.

(**) الجبوح: خلايا النحل.

هذه الأصـوات والتعليقات أصبحـت تزعجني فقـررت التخلص من الحمـار بـأي طريقة، فقـررت بيعه. عرضتـه على البعض فـي الوادي فرفضوه بسـبب عرجه الواضـح. كنت محتاجاً لأي مبلـغ، وأدعو الله أن يتمم الصفقة بأسـرع ما يمكن، كي أسـد احتياجـات البيت وأعتني بوالدتـي طريحة الفراش. وأيضاً لتسـديد ديوني لناصـر الذي يرمقني بنظراته عندما يشـاهدني أشـتري بيبسـي أو عصير، وكأنه يقول لي: لا تشـترِ أي شـيء إلا بعد أن تسـدد دينـك. وفي بعض الأوقـات عندما أكون جالسـاً مع بعض شباب القرية وأثناء مروره بنا يقول لي بصوت مقـزِّز: أين فلوسـي؟ متـى بترجع لي الفلـوس التي عليـك؟ كرر هذه النغمـة أكثـر من مـرة في أوقـات مختلفـة، وفـي الأخير، لـم أتمالك نفسي، فنهضت ودمي يغلي وسددت له عدة لكمات إلى أن سال الدم من خشـمه. فقام النـاس بفض المضاربـة. وبعدها تغير سـلوك ناصر نحوي، وأصبح يعاملني معاملة مختلفة عن سابق عهده.

لجأت إلى أيوب في موضوع الحمار الأعرج، فقال: لا حل لك إلا أن تبيعه لشخص أعمى.

فكرة لم تخطر على بالي برغم سخريتها. اعترفت بخبث أيوب.

قلت له: ولكن لا يوجد أعمى في قريتنا.

قال لي: لا تهتم. غدوة بنروح إلى القرية المجاورة، ونبحث عن سرور الأعمى، المعروف عنه حبه وعشقه للحمير.

عـرف عـن سـرور تجارتـه بالحميـر قبـل أن يعمـى. كان يتنقل بحميـره في الـوادي يعرضهـا للبيـع، واشـتهرت حميره بأنهـا جيدة، وتتحمـل العمل، ولا تعض ولا ترمح، مسـالمة مثل صاحبها سـرور.

أي أنهـا أليفة معتادة على البشـر. وكانت لسـرور طريقـة في ترويض الحميـر التـي ترمـح، إذ كان يصطحبهـا بالقـرب مـن حجـرة كبيـرة ويجعلها ترمح في الحجرة إلى أن يشـعر الحمار بألم شديد ويتروض بعدهـا، ويكـون حماراً مسـالماً لا يرمـح ولا يعض. ولـم يخطر ببال سرور أنه سيصبح يوماً ما أعمى بسبب رمحة وجهها أحد الحمير إلى عينـه التي كان يبصر بهـا لتلحق بعينه الأخرى التـي فقدها منذ الصغر بسبب مرض الجذيعة.

كم هـو منكسـر العم سـرور، لـم ترحمه الأقـدار، ولـم يعطف النـاس على حالته، وإلا فكيـف تمكن هذا الشـمالي اللعين، من بنت العم سـرور حتى جعلها تهرب معه؟ هناك شائعات يروج لها البعض بأن هؤلاء الشماليين يسـحرون بنات الوادي، والبعض يدعي بأنه يتم اختطافهن كما تم اختطاف بنت العم سرور.

أيـوب يحمـل نفس حيـرة أهل الـوادي ويسـأل عن السـر وراء اختفاء البنات. ماذا يعمل هؤلاء الشـماليون بالبنات؟ هل يسحرونهن أو يغرونهن بالمال كي يذهبن معهم ويتركن أهاليهن؟

هل حقاً وقـع الحب بينهما، وكيف بـدأت العلاقة بينهما ونحن شـباب الوادي لم ننتبه؟ كل هذه الحيرة أحاطت بعقل أيوب وعقلي. فنحن نحـب، ولا نملك الجـرأة والقدرة علـى أن نصل إلـى حبيباتنا في هذا الـوادي. وغيرنا يأتي من بعيد ويكون لـه النصيب في الحب، والعشق، والخطف.

عجائب هذه الدنيا، عجائب. قالها أيوب بصوت منكسر، فصوته صوت العاشق الذي يبحث عن قلب يرافق قلبه الذي طال به الانتظار

ولم تصل نبضات قلبه إلى أمنياته.

- آآه يا صديقي عقرون، فبعد هذه الحرب أصبحت الحياة لا تبشر بخير.

ردَدتُ عليه بأن لا يتشاءم فقال:

- كيف لا أتشاءم وأنا أرى هذا الانحدار في كل شيء. الشمال لم يرسل إلى بلادنا العوائل مع بناتها كي نتصاهر معها، وتكون وحدة حقيقية لحماً ودماً. أرسلوا لنا الطبقة المسحوقة يا عقرون، كيف نتصاهر مع الحرافيش؟ وأيضاً الطبقة المسحوقة من العسكر، والباعة، والبقية مرتزقة مثل الذين يخطفون البنات عندنا في الوادي. هل نسمي من يقوم بهذه الأعمال شرفاء يا عقرون؟

سألت أيوب: من قال لك هذا الكلام الخطير، فأجاب:

- أبوي يا عقرون أبوي. ألم تسمعه أثناء الحرب وهو يجادل جارنا الكبش عن انحراف الوحدة وأيضاً عن انحراف القيم والأخلاق الوطنية؟ ينظر الكبش يا عقرون إلى أبوي بأنه أحمق وجاهل ولكن هو عكس ذلك، أرى أن عقله يوزن كل عقول أهل الوادي. قال أبوي إن الريّس سالمين(*) هو الذي علمنا نحن الفلاحين معنى الحياة وكرامة الإنسان، ولولا سالمين لضعنا، وتهنا أكثر. وقال أبوي يا عقرون: «فلو كان الريّس سالمين حياً لما فكر علي عبد الله صالح

(*) سالم ربيع علي يعرف باسم سالمين. كان رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من 22 يونيو 1969 إلى 26 يونيو 1978.

أن يطلق (فشـفوش)[*] في سـماء عدن، ولـو فعلها صالح في عهد سـالمين، فسوف يرسـل إليه إلى صنعاء من يقص شنباته وسيجعله مثل وحدته التي بلا شنبات وبلا كرامة».

رددت على أيوب:

– ياهوين.. ياهوين... ماتوا الرجال!

تحاشـينا أنظار الناس ونحن في طريقنا إلى العم سرور، فسلكنا طريقـاً آخر كي لا تقع أعين الناس علينا ويسـخرون منـا كالعادة ومن حمارنـا الأعـرج. أثنـاء وصولنا إلـى دار العم سـرور وقفنا ننـادي يا أهل الـدار.. يا أهل الدار.. ومـرات ننادي يا عم سـرور، انتظرنا، ولا مجيب. طرقنا سـدة الدار، فـكان الصمت هو المجيب، وبعد سـؤال شـخص عابر، أخبرنا بأن سـرور هناك بالقرب من (السـقاية)[**] التي يقوم بترميمها مع المعلم حيمد.

– علينا أن نجده وحده وإلا انكشف أمرنا. قال أيوب.

كان وحـده عندمـا اقتربنا منه. نـادى أيوب: يا عم سـرور، تعال نبغاك.

ارتباكنـا كان واضحـاً بمناداتنا المسـتعجلة. ارتبك العم سـرور مثلنا، وكان في رده على مناداة أيوب وهن وخوف.

– أيه تبغون يا عيالي.

(*) فشفوش: لعبة نارية.

(**) السقاية: عبارة عن مبنى صغير، صهريج ماء لحفظ ماء الشرب ويشرب منه عابرو السبيل في حضرموت وخاصة الأودية.

كان قلبـي يرتجـف، لأن خوف العم سـرور أصبـح واضحاً من صوتـه وحركته المرتبكـة، وخفت أن يتهمنـا بمحاولة سـرقته أو بأننا نوي به شراً، فقد كانت منادتنا المستعجلة له تثير الشبهة.

سـارع أيوب لتـدارك الأمر قبـل هروب العـم سـرور أو قبل أن يصيح العم سـرور بأعلى صوته ويتهمننا بأننا حراميه أو نريد أن نوقع به الأذى.

تدارك أيوب الأمر وقال: يا عم سرور عندنا حمار للبيع.

وعندما سمع العم سرور كلمة حمار، ارتعش في مكانه، بطريقة تثير الضحك، فقام من مكانه بسـرعة، وكاد أن يصطدم بوجه الحمار. فأسـرع في خطواته، واقترب من الحمار أكثر ومسـح بيده على ظهره ومررهـا على بطنـه ورأسـه ليتأكد مـن سـلامة الحمار، وفـق طريقته الخاصـة في معرفـة ذلك. وبعد أن اقتنع العم سـرور بسـلامة الحمار اتفقنـا علـى بيعه بألفـي ريـال. مبلغ زهيـد ولكـنْ للظـروف أحكام. فظروفـي الخاصـة جعلتني أبيعـه بهذا المبلـغ، وأيضاً وضـع الحمار الأعرج الذي لا يسـتحق هـذا المبلغ ولا أي مبلغ آخر بسـبب عرجه الذي يشـبه عرج حكومـة الشـرعية التي تقـود البلاد بصك الشـرعية المزوّر.

عدنـا أدراجنا ونحن نغنـي ونرقص فرحاً بالتخلـص من الحمار الأعـرج. فلـم يخطـر ببالنا أن العم سـرور سـوف يأتـي اليـوم الثاني وبرفقتـه جـاره العم صالـح، وحمارنـا يعـرج خلفهما، والعم سـرور يخاطبنا بأبشع الكلمات، مرة بعيال القحاب ومرة بعيال الكلاب، فلم نكن نعلم بأن العم سرور سليط اللسان وإلا ما ذهبنا إليه. لم نتخلص

من هـذه الإهانة إلا بإعـادة المبلغ للأعمـى وأخذ حمـاري منه. ولم أتخلص من سـخرية الناس ومـن إهانة العم سـرور، إلا بترك الحمار لحال سـبيله، فقد تخليت عنه، وأخبرت أكثر من شـخص أن يأخذوا الحمـار مجاناً إن أرادوا، بـدون الرجوع إليّ. فهـو صدقة جارية لكل شهداء الحروب وضحايا الحكومات الشرعية في كل بقاع الأرض.

-3-

ما إن وصلت بالقرب من بيت كاسترو حتى سمعت صوتاً على شكل صوت غنائي، ويتبع هذا الصوت تصفيقات، كأنه (شرح)(*) في (المدارة)(**):

موج موج... يا الله إلى الأمام.

موج موج... والنصر لنا تمام.

وظهر والد أيوب كاسترو برأسه من (الخلفة)(***) وهو يردد بنفس النغمة:

موج.. موج.. موج.

ظننته قد فقد عقله! لست أدري ما هو الموج الذي يقصده كاسترو؟ وأثناء مرور الكبش من تحت دار كاسترو كان نفس الصوت:

موج.. موج.. موج.

سأله الكبش:

- أيش تقول؟ موز.. موز؟

أجابه والد أيوب:

(*) الشرح: رقص شعبي.

(**) المدارة: تكون على شكل دائري يقام فيها الرقص الشعبي في الأماكن العامة في البلاد ويختلط فيها كل فئات المجتمع من الرجال، وترقص المرأة وتزفن داخل المدارة والرجل ممسك بإحدى يديها، وأحياناً تكون النساء متفرجات من أعلى السطوح أو من مكان قريب من المدارة.

(***) الخلفة: النافذة.

- موج.. موج.. موج.

الكبش: أيش من موز تقصد، شيء (غرام)(*) بك؟

كاسترو: الموج الموج آت، وسوف يجرفكم عن بكرة أبيكم ومع ريسكم علي.

صمت الكبش ومضى في حال سبيله، وهو يتمتم بكلمات وكأنه يتوعد كاسترو بيوم أسود.

لا أعرف ما هي حكاية موج التي يقصدها والد أيوب، إلا عندما قابلت أيوب مستفسراً من تصرفات والده، وصوته وهو يردد: موج.. موج..موج، وكأنه قد فقد عقله.

أخبرني أيوب أن أباه يقصد بـ (موج)، رمز منظمة سياسية ظهرت في أرجاء البلاد وهي حركة موج التي تتوعد قوات صالح ونظامه بالانتقام وإعادة الكرامة للإنسان والوطن.

أصبح الناس في الوادي يتناقلون أخبار موج والمنشورات التي يجدونها ملصقة على جدران المحلات وأحياناً متناثرة في سوق الوادي حيث يتجمع معظم الناس.

ابتهج كاسترو عندما وصلت إلى يديه هذه المنشورات وأصبح يترنم بأصوات غنائية مختلفة بالموج الذي سوف يجرف الفساد والمفسدين من البلاد. لم يصدق الكبش خبر المنشورات، وعندما شاهدها بأم عينيه التزم الصمت، وكأنه يؤكد بصمته أن حكومة الشرعية هي الأصلح للبلاد والعباد كما قالها أثناء الحرب.

بعد أن شاع خبر المنشورات وانتشارها في الوادي، كانت

(*) الغرام: الجنون.

سيارة المأمور تجوب الوادي ويتبعها طقم عسكري، وكأنهم يبحثون عن الشخص الذي يقف وراء هذه المنشورات، أو كأنهم يريدون أن يعيدوا هيبة الدولة وتخويف الناس. فتم الاشتباه بشخص اسمه مقبل، فقبض عليه، عندما كان يتسوق في السوق، بطريقة مهينة، فبعد ما أشبعوه ركلاً وضرباً، اقتادوه إلى مركز الشرطة، وبعد التحقيق معه، لم يثبت تورطة في القضية فأُطلق سراحه.

بعد هذه الحادثة بأسابيع اختفى مأمور الوادي، حتى أسرته لا تعلم عن سر اختفائه شيئاً. بحثت عنه ولكن بلا جدوى. هناك شائعات وهمس بأن المأمور قُتل من قبل مجهولين من أبناء الوادي، الذين يتهمونه بأنه وراء التراخي الأمني في الوادي وأنه لم يحرك ساكناً عندما تم اختطاف البعض من بنات الوادي على أيادي شماليين وكأنه يحميهم ويشجعهم على هذه الأعمال الشنيعة. والبعض يقول إن رجال علي عبد الله صالح الأقوياء في حضرموت اختطفوه، واقتادوه إلى صنعاء عندما فشل في معرفة الأشخاص الذين هم وراء منشورات موج المحرضة على النظام.

اختفت منشورات موج واختفى المأمور أيضاً، والوادي يسير في دوامة خطيرة. لاح غضب على وجه كاسترو عندما وصله خبر بأن الكبش سوف يصبح مأموراً على الوادي بدلاً من مأمور حكومة الشرعية المختفي والذي لا يعلم أحد مصيره إلى الآن.

كان الشباب والأطفال يصفقون ويتبع كل تصفيقة تصفير متقطع، وهم ينادون ويرددون باسم الكبش الذي سوف يحكم الوادي وسيكون الرجل الأول الذي يأمر وينهى فيه. وأثناء الهرج

والمرج والتصفيق المستمر كان والد أيوب واقفاً في (الريم)(*) يشاهد هـذه المسـرحية التي لـم تعجبـه. والكبش يمضـي إلى الحشـد بزهو وكبريـاء، وكأنه أصبح مأموراً حقيقياً. يبارك لـه الناس، وهو ينظر إلى كل الوجوه التي تسـتقبله بابتسـامة، وأحياناً يحرك رأسه علامة الفرح والغرور أيضاً. ومع كل تصفيقة من الشباب، ينظر الكبش إلى خصمه فـي القريـة كاسـترو الواقف فـي الريـم ويرمقة بنظـرات فيهـا الوعيد لوالد أيوب ولكل انفصالي. صمت الحشـد، منتظراً كلمة الكبش عن مشاريعه القادمة التي سيقوم بها عندما يستلم المنصب.

قال الكبش:

- أول قرار سوف أتخذه هو بناء مدرسة ابتدائية للأطفال في هـذه القرية التي لـم يصلها أي مشـروع حيـوي إلى الآن. والقرار الآخر الذي سـوف أتخذه هو تسـليم كاسـترو إلى العدالة، فقد أسـاء إليّ شـخصياً، وأنا بدوري ومكانتي في البلاد مسامحه في الشـأن الشخصي، أما أن يسيء كاسترو إلـى الوطن والوحدة وحكومة الشـرعية فهـذا غير مقبول، غير مقبـول، غير مقبـول. كررها الكبش ثلاثـة مرات وهز رأسـه بطريقـة مثيـرة للضحك. صفـق لـه أبنـاء القرية مع تصفيـر مسـتمر مؤيدين. لـم يحتمـل والد أيـوب كلمات الكبـش، فخرج مـن داره متجهاً نحـو الكبش حامـلاً بيده (صميـل)(**)، والشـرر يتطايـر من عينيـه وشـنباته الكبيرة

(*) الريم: السطح.

(**) الصميل: العصا.

ترفرف مع الهواء كأنها غاضبه أيضاً من الكبش، وكاسترو يقتـرب أكثر من الكبـش وعندما وصل بالقـرب منه، هوى بالصميـل عليـه فتدخـل بعـض شـباب القريـة، فأمسـكوا بكاسـترو، وهو يتوعد الكبش بكسر رأسـه، وأن يذهب به إلى القبر قبل أن يصبح مسؤولاً في البلاد.

كان كاسترو يشتم الكبش أمام أهل القرية قائلاً:

- أنت أصلاً كبش واسـمك يدل على غبائـك، فهل صدقت أن حكومة الشـرعية سـوف تجعلك مسـؤولاً في الوادي، وأنهم سوف يبنون مدارس لأطفالنا؟ أنت تحلم يا الكبش بـل تتوهـم. يكفـي أنهـم انتزعـوا منـك، ومنـي، ومن كل واحد منا فـي هذه القرية، لقـب الرفيق وأصبحـوا ينادوننا (بالصبيـان)(*) وتشـجيعاً مـن هـذه الحكومـة، لـم تـردع الحكومـة هؤلاء العنصرييـن، نحن مجرد كتلة سـوداء في نظر هـذه الحكومة الجديـدة والناس أيهـا الكبش. لا أحد يعتنـي بنا، فلـم يقم أهـل الخير ببنـاء المـدارس لأطفالنا. حتى حكومة الاشـتراكية انشغلت بمشـاكلها الداخلية بعد موت ريسـنا سـالمين، والوحيد الـذي تعلم مـن قريتنا في عهد سالمين هو الدكتور عيدروس. فالكل نسينا لأننا كتلة سـوداء لا تثيـر الاهتمـام ولا تلفـت النظر، فمـن متى كان للأسود قيمة في هذه البلاد؟

(*) الصبيان: فئة تقوم بالزراعة والعناية بالنخيل في حضرموت، ويطلق عليهم الصبيان وهو مسمى عنصري طبقي.

-4-

لفت انتباهي أيوب وهو يترنم بكلمات فيها حرفوشة وأن جمالها يخطف القلوب.

سألته من هذه الحرفوشة؟

قال لي:

- بنت عبده الحرفوش، هؤلاء يطلق عليهم (حرافيش)(*)

وعاود الحديث عن حرفوشته:

- «محروم من لا يحب حرفوشة محروم والله محروم».

وضحك ثم ذهب في طريقه وهو يترنم بكلمات على أغنية:

يا وليد يا نينو لما متى وأنا صابر

يا وليد يا نينو شل الماء وسقيني.

عرفت عن الحرافيش أنهم لا يتحدثون مع الناس كثيراً، ويمضون في سبيلهم بصمت. رجل وامرأة وابنتهما الوحيدة الحرفوشة التي قال أيوب إنها تسحر من يعرفها وتتوحد بمن تحب تحت سقف عشتهم المصنوعة من سعف النخيل. لم نعرف الحرافيش من قبل، فبعد الحرب، جاءت وجوه كنّا لا نعرف عنها شيئاً. وجوه تبحث عن أشياء كثيرة مثل أصحاب البقشة الذين يتنقلون حاملين على ظهورهم بقشة وأكياساً فيها مستلزمات نسائية يدورون بها على قرى الوادي.

(*) الحرافيش: فئة مهمشة أتى بعضهم من الشمال إلى الجنوب بعد حرب 1994، ويقال لهم أخدام في الشمال أما في بعض مناطق الجنوب فيُطلق عليهم حرافيش.

سـمعت من أيوب أن لعشـة الحرافيـش جاذبية تجـذب كل من يمر بالقرب منهـا، وخاصة من يقترب من ابنتهـم مريومة التي تجذب القلوب وتحيـر العقول. حاولت أن أجمع معلومـات كافية من أيوب عن حيـاة مريومة، ولكني أخفقـت في مهمتي التي كلفت نفسـي بها، ولـم يخبرني أيـوب بأي شـيء، وكأنه يغـار ويخـاف أن يخطفها قبله أحد.

مريومـة بـدأت تلفـت الأنظار فـي الـوادي. قوامها غيـر عادي، عيناها تخفيان سـحراً فريداً، فعندما ينظر إليها أي شخص يُصاب قلبه بداء العشـق. دمها لا يشـبه دماء الحرافيش المنتشرين في طول البلاد وعرضهـا، دمها حالي كمـا يقول أيوب. لـم يكف أيوب عـن التغزل بها، بـل جعل الأقوال أفعـالاً. وكلما نوى أيوب زيارتهم في عشـتهم لا يدخـل إلاّ ومعه قاته وقات لمريومة وأيضاً قـات لأبيها عبده وأمها الحجة عائشة. قال لي بعدما عاتبته بأنهم سوف يفقرونه فوق فقره:

«كلـه على شـأن مريومـة يا عقـرون، خطفـت قلبـي والله، قلبي مخطـوف يا عقـرون مخطـوووف». هكـذا نطـق بالكلمات مـع أنّة عاشق.

فقلت له:

– إنها تضحك عليك وتلعب بمشاعرك وتستنزفك. فلم يهتم بي ولا بنصائحي.

قصصـت عليه حكايـة مريومـة وعشـقها لأكثر من شـخص في الـوادي، وأنهـا تنفرد بهم تحت سـقف عشـتها أثنـاء غيـاب والديها. غضب أيـوب من كلامي، واتهمنـي بالحقد، وأنني أريـد أن أنفرد بها

وحدي. ثم قال لي:

– أنت تريد أن تبعدها عني يا عقرون.

– الأيام ستكشف المستور يا أيوب.

ولأول مرة أشـاهد أيوب وهو في حالة غضب والسـبب مريومة التي لا نعرف عنها إلا أنها بنت الحرافيش.

تركـت أيـوب وحيـداً واقفـاً بالقـرب مـن البيـت المهجـور في حيضـان النخيل، وهو يسـب ويشـتم بطريقة مضحكـة ومحزنة. فمع مرور الأيـام، هزت الوادي فضيحة في عشـة مريومـة عندما وجدوها تصيـح بأعلـى صوتها وتبكـي، متهمه يسـلم من أبنـاء البـلاد بأنه قام بعصر ليمون في المنطقة الحساسـة، ما جعلها تتوجع، وترفع صوتها باكيـة. جاءت الشـرطة، واجتمعـت الناس على هـذا الحدث، ولأول مرة صار التحقيـق أمام الناس، وكان الشـرطي ماسـكاً بملف القضية وهو يكتب ويعرق برغم اعتدال الجو. ولعل سبب عرقه تلك الحكاية المخجلـة التي يسـمعها من مريومـة، وبدون خجل، وبطريقة جنسـية مثيرة وهي توضح له كيف فعل يسلم بها داخل العشة، ووضع قطرات من الليمون داخل منطقتها الحساسة. أثناء سماعي للأحداث أدركت بأن البلاد والعباد قد تغيرت، وإلا لمـا حدثت هذه الحوادث الغريبة. وكذلك طريقة الشرطي في التحقيق في مكان عام والكل يسمع، ولم يذهب إلى قسم الشرطة كالعادة. الناس أصبحوا لا يستحون، وهؤلاء الحرافيـش لا يخجلـون. فهـم يتحدثـون بـكل وضوح، ويمارسـون الجنس مع كل شخص في الليل والعشية، بلا خوف من أحد.

أقسـم لـي أيـوب أنـه كان يراقبهم فـي الليـل ويشـاهدهم وهم

يمارسون الجنس بطريقة غريبة، وكان أيوب يترصد خطواتهم في الليل وكأنهم سحروه؟ كان يشعر بالمتعة وهو يسمع همسهم وحديثهم أثناء أنفرادهم بأنفسهم وكان يضحك أثناء حديثه إليّ عنهم وخاصة عندما يسمع كلامهم المخجل، الذي لم يتعود سماعه.

اعترفت مريومة للشرطة بأنها كانت في لقاء حب بيسلم، وأثناء الاستعداد لحرث أرضها، ودق المسمار في جذعها، فاجأها بثمرة ليمون وعصرها داخل أرضها الخصبة بطريقة سريعة ما أثار وجعها وألمها.

سأل الشرطي يسلم مستفسراً عن الأسباب التي جعلته يقوم بهذه الطريقة الغريبة التي لم يفعلها أحد من قبل.

فقال يسلم: كان السبب...

ثم سكت عن الحديث. نهره الشرطي وأمره بأن يواصل حديثه، فلم ينطق بكلمة، فصفعه الشرطي على وجهه، فنطق يسلم قائلاً: إن صالح صاحب الورشة نصحني وقال لي:

- قبل أن تحرث أرض الحرفوشة وتدخل إلى المنطقة الحساسة، عليك أن تتأكد بإنها خالية من الأمراض، وهذا لا يتم إلا بعصر حبة الليمون على أرضها وخاصة في المنطقة الحساسة. فإذا تأثرت الحرفوشة من قطرات الليمون فهي سليمة، وأرضها خالية من الأمراض وعليك أن تحرثها بلا خوف وتغوص في العمق، وإذا لم تتأثر الحرفوشة فأرضها غير صالحة، وعليك أن لا ترش مائك على أرضها، وإلا سوف يذهب جهدك بلا فائدة، بل فيه

خطورة على صحتك.

ضحـك المتواجدون أثنـاء سـماعهم حكاية مريومة مع يسـلم، وكنـت واحـداً ممـن يضحكـون وبطريقـة مسـتفزة كي يعـرف أيوب مقصدي، وبأنني قد نصحته من مريومة وخبثها.

جـاء عبـده والد مريومـة بعـد أن أغلق ملـف التحقيـق. وعندما عـرف الحكاية، أنكـر أن تكون ابنته منحرفة الأخلاق، بل اتهم يسـلم بأنه يغريها دائماً بالقات، وكان يتقـرب منها أثناء وجودهم، ولعله في أثناء غيابنا جاء بقصد آخر لم نعهده منه.

لم تكترث الشـرطة لحديثه، فأخذت مريومة، وكان عبده منفعلاً ويشـتم، وصـاح بأعلى صوته بـأن مريومة شـريفة وعفيفة وأن يسـلم هو الشـيطان الذي أخرجها من الطهارة إلى النجاسـة، ومن النور إلى الظلام. فرد عليه الشرطي:

- إن ابنتك يا عبده تسـببت في إفسـاد أخلاق شباب الوادي، ويسـلم هو ضحية وغيره الكثير من الشـباب كانوا ضحايا بنات الحرافيش في القرى المجاورة.

كان الشـرطي يمضغ القـات وينطـق الكلمات متقطعـة وثقيلة. وعندما أخذوها وبعدت سيارة الشرطة، تعالى صوت أيوب:

- مريومة، مريومة، مريومة.

ضحك الناس على أيوب فقال لهم: إنها بريئة.

بعـد مرور سـاعات علـى أخذها إلى قسـم الشـرطة تـم أطلاق سـراحها. ويشاع في الوادي بأن رجال الشـرطة أطلقوا سراحها بعدما اتفقوا معها على حرث أرضها المتعطشـة لقطرات المطر، وعندما تم

لهم ذلك عـادت مريومة إلى عشـتها، ولكنها لـم تجـد أباها وأمها في العشة. شاهدها أكثر من شخص وهي في سوق الوادي تنادي بصوت حزين وهي تبكي وتنتحب: أشتي أبي أشتي أمي.

كان بالقرب منها عجـوز تجاوز عمره السـتين عاماً وفيه ملامح من عمر المختار ويناديه أهل الوادي بـعمر المختار.

لـم يحتمل عمـر المختار صوتهـا المزعج، وهي تبكـي وتنادي على أبويها، فصاح فيها:

– صه يـا بنت، بتقومين من هنا وإلا قمت وكسـرت رأسـش بهذا الصميل». وهز الصميل نحوها وهو في حالة غضب، والمسكينة تعيد:

– أشتي أبي أشتي أمي.. أين ذهبوا؟

صوت رجل آخر ينهرها:

– يـا حيوانـة ابعـدي مـن هنـا، ولا توسـخي سـوقنا بعـد ما وسـختِ سـمعتك مع يسـلم. قومـي انقلعـي مـن هنا الله يقلعك، ويقلع من جابكم إلى بلادنا.

قبـل أن تـودع الشـمس حواف الجبـال، كان فـي انتظارهـا بائع القات. دنا منها، تحدث إليها بصوت منخفض، إلى أن ركبت معه في السيارة. وكنت أشـاهد هذا المشـهد المثير، تمنيت أن يكون صديقي أيوب هناك ليشاهد مريومة وهي تذهب معه.

لا أحد يعلـم إلى أين ذهـب بها بائـع القات، أو مـاذا فعل بها؟ الـكل كان يحكي عـن مريومة، وعـن ابتكارهـا خدعاً كثيـرة كي تقع فـي أحضان الرجال. يصفها أكثر من شـخص بأنهـا داهية في أصطياد

الرجـال، وداهية في امتصـاص جيوبهـم، وداهية عندمـا تكون تحت عشتها ويحرث أرضها. وجمالها داهية أيضاً.

عندما عادت مريومة من مشـوارها الخـاص مع صاحب القات، علمت بمكان أبيها وأمها. وجدتهما تحت شـجرة بالقرب من قريتنا. اصطحبهـم أيوب إلى القريـة وكانوا في ضيافته واشـترى لهم القات، وكانـت الخطة تقضي بـزواج أيوب بمريومة. وعندمـا علمت مريومة رفضت في بداية الأمر، ولم تتـم الخطوبة. كل من في القرية اجتمعوا ضد فكرة أيوب، فكان صوتهم صوت رجل واحد في طرد الحرافيش من ديارهـم. فأهل القرية كبقيـة أهل الوادي يعتقدون بـأن الحرافيش يفسـدون أخلاق الشـباب وقلوبهم. كان أيوب هو الوحيد المعارض لطردهـم وكانـت حجتـه أنه سـوف يهديهم إلـى الصراط المسـتقيم. فـرد على أهل قريته: «علينا أن ننصحهـم ونعلمهم أمور دينهم». فكان الرفـض من معظم مـن في القريـة، وخاصة مـن والده كاسـترو الذي هدّده أمام أهل القرية، بطرده وأنه سـوف يتبرأ منـه إلى يوم القيامة إذا صاحب هـؤلاء الحرافيش مـرة ثانية أو حاول أن يدخل عشـتهم التي يُثار حولها الجدل والكثير من القصص.

لم يخطر على بالنا أن أيوب سوف يرفض طلب والده، فقد أصر على فكرتـه وقرر الذهاب مـع الحرافيش والسـكن معهـم والاقتران بمريومة.

- أنـا لا أريـد إلا مريومـة وسـوف أتزوجهـا علـى سـنة الله ورسـوله. هكذا قالها أيوب بعد تردّد وخوف شديد ولكن نطق بها.

كان صوت كاسترو قوياً وصارماً وأمر ابنه أيوب بعدم العودة إلى بيته، وتم طرده من القرية. وشاهدنا الحرافيش يمشون في الوادي ومعهم أيوب. وأنا قلبي يتقطع على صديقي أيوب كيف يهجر قريتنا وكيف يتركني وحدي. ولأول مرة يحدث في الوادي أن ينضم أحد أبنائها إلى مجموعة الحرافيش. نُسجت الحكايات عن أن أيوب أصبح مسحوراً من عبده ومن ابنته مريومة. والبعض قال إن أيوب كره الحياة مع والده الذي كان قاسياً عليه وكثيراً ما يجعله يعمل معه في (الحجل) بدون راحة. والبعض قال إن أيوباً أصلاً غشيم وخفيف عقل وإلا ما ترك أهله وذهب مع ناس يُعتبرون دخلاء على الوادي وعاداتهم غير عاداتنا.

أيوب ضاع يا ناس، أيوب أصبح مع الحرافيش يمشي معهم في الوادي، يجوب أسواق الوادي، يأكل معهم، وينام معهم، وكل شيء يعمله معهم بلا أي تردد.

هكذا صحت للناس في قريتنا راثياً لحال أيوب، فكان الصمت من الكل.

-5-

اعتلى كاسترو منبر المسجد في قريتنا، وأصبح إماماً وخطيباً بعد وفاة شيخ القرية. كان الاختيار من نصيب كاسترو، وكان الكبش يطمح في إمامة المسجد، ولكن شعبية كاسترو فاقت شعبية الكبش التي تراجعت بسبب محاولته مع شيخ القرية قبل وفاته بأن يقوم مع أهل الخير بإعادة بناء المسجد بالطريقة الجديدة بالطوب والإسمنت. وقف شيخ القرية في وجه الكبش ورفض هذه الفكرة وقال للكبش:

هذا المسجد صورة من صور أجدادنا الذين بنوه بهذه الطريقة، فهو ينتمي إلينا وإلى طبيعتنا، فكيف تريدنا أن نكسره ونبنيه بطريقة ليست من طرق الوادي في البناء. هذه بطرة. أنتم تريدون تغيير وجه البلاد، وأيضاً لكم أهداف في مسخ تراثنا. الشك يدور حول الكبش بأنه أصبح يحمل أفكاراً غريبة، بعد ما تعرف على أصحاب الدعوة. يستنكر كاسترو حياة أصحاب الدعوة الذين لم نعرفهم إلا بعد الحرب، وكأن من يسكن هذا الوادي هم من اليهود والنصارى حتى يدعوهم إلى الإسلام. الكبش يدافع عن هؤلاء بأنهم أولياء، وأن ما يقومون به بعيد عن السياسة. ولكن كاسترو أصر في حديثه بأن من يسكن الوادي هم مسلمون ولا داعي يا الكبش لهذه الدعاية والسخافة.

أشم رائحة الماضي كلما اقتربت من المسجد، منارته الصغيرة والتي طُلي رأسها باللون الأخضر، أما بقية المسجد فقد طُليت باللون

بالأبيـض (النـورة)(*). يحيط بالمسـجد النخـل مـن كل جهاته، ومن جهـة البوابة توجد مسـاحة صغيـرة للدخول إلى المسـجد، وكأن من قاموا بزراعة النخيل بهذه الطريقة حول المسجد يدركون معنى الحياة وجمالهـا. ففـي أثناء الجلوس في المسـجد تشـاهد النخـل الأخضر ومن خلف النخل تشـاهد الحيضان المزروعة بالموز، أو الليمون، أو الباباي.

لُقب كاسـترو بهذا الاسـم بسـبب شـجاعته وجهره دائماً بكلمة الحق، وكذلك بسـبب حبه للرئيس الكوبي فيدل كاسـترو، الذي كان يعلق صورته في غرفة الاسـتقبال. وأقسم كاسـترو بأنه سوف يحررنا مـن عبودية صنعـاء، كما حـرر رئيس كوبا شـعبه من عبوديـة أمريكا. وكلمـا زاد حنقـه يتوعـد الكبش ويقـول لـه موعدنا المسـجد. فألقى كاسـترو ذات جمعة خطبة جعلت كلماتها تصل إلـى أبعد من قريتنا، قـال فيهـا وهـو يزبد حنقـاً علـى الحالة التـي وصـل إليها النـاس في استحقار اللون الأسود:

هؤلاء يكرهون الرئيس سـالمين لأنهم يكرهون النور، ولم يكن سـالمين إلا نوراً يقود الشـعب إلى القمة، أما الفاسدون فيقودهم إلى قبورهم. هؤلاء مثل جماعة قريش الذين عذبوا سيدنا بلال لأنه أسود مثلنـا واسـتحقروه، فرفع من قيمتـه نبينـا وحبيبنا محمد بـن عبد الله، وفضله على أصحابه وعلى أبناء عمومته وعلى السـادة، وجعله مؤذناً له وللمسـلمين لأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسـلم إنسان بكل ما تعنيـه الكلمـة من إنسـانية. فلم يحتقر يوماً أي إنسـان أو أي شـخص

(*) النورة: مادة بيضاء تستخدم في طلاء المساجد والبيوت من الخارج.

أسـود. فلو بُعث سـيدنا بلال من قبره في عصرنا هذا، عصر الشرعية، ولبس لبسنا كشيذر، ووضع على رأسه عمامة ذات لون باهت، ولبس قميصاً ذا ألوان متعددة، لم ولن يعرفه أحد. فأثناء مروره في شوارعنا، أو عبوره في أسـواقنا، أو جداله مع بعض الأشخاص، فسوف ينادونه يـا عبد، يـا صبي، يـا جعيل، أو يـا خادم. هـؤلاء ما يسـتحون وإلا ما اسـتحقرونا، ونحن نُعتبر من نسل سـيدنا بلال رضي الله عنه. أستغفر الله أسـتغفر الله. أشـم مـن أفواه هـؤلاء رائحـة معفنة تجعل الإنسـان (يقذف)(*).

بعـد الصلاة مباشـرة وقف الكبـش مخاطباً النـاس، أنه لا يجوز شـرعاً تحويل خطبـة الجمعة إلى سياسـة، وأن ما يقوم به كاسـترو لا يجوز مطلقاً. لم يرد عليه كاسترو بل رد على الكبش شخص من أولاد القرية فقال لـه: «وهل يجوز قتل الناس باسـم الوحـدة، يا الكبش؟». هذا كاسـترو، كاسـترو بلادنا، ورفع أبناء القرية وشبابها كاسترو على ظهورهم ومشـوا به، وهم يرفعون مـن أصواتهم كاسترو..كاسـترو.. كاسترو. فكان ذاك علامة الرضا عن الخطبة وكأنها حكت عن الواقع المر الذي نعيشه في البلاد.

وفـي خطبة من خطب الجمعة وقف كاسـترو على المنبر غاضباً من حال الوادي وأهله، بل من حال البلاد كلها فقال:

الناس أصابهم الملل بعد الحرب، والحيرة والقلق لا يفارقانهم، وهم يشـاهدون أولادهم يتسابقون إلى أسـواق القات ولا يستطيعون منعهـم من تصرفاتهـم التي لا تنتمي إلـى ثقافتهم وتاريـخ أجدادهم،

(*) يقذف: يتقيّأ.

كأنهـم مكبلـون بالأصفـاد، مـن كبّلهـم إذاً، أليـس ظلمهم لأنفسـهم واستسلامهم لكل الشرور؟ ينظرون إلى مستقبل مبهم، وهم يسمعون عـن السـرقات، والتقطـع للنـاس فـي أماكـن متفرقـة وقتلهـم ونهب ممتلكاتهـم، ولا يحركـون بنادقهـم التـي علقوهـا في غرفهـم كزينة. إنه ظلمهم وضعفهم ولأنهم صفقوا للشـر، ومن يصفق للشـر مصيره المـوت ببـطء وعذاب آخر قبـل الموت. والله يعذبنا بسـبب سـكوتنا علـى الظلـم، وكلنـا نتقاسـم العـذاب بالتسـاوي ومصيرنـا واحد في العـذاب. فلـن يموت هـؤلاء كالشـجعان الذين خاضـوا المعارك في ميادين الشـرف ضد نظام الشـرعية، ولن يكونوا مثل الجندي الوحيد الذي مات وهو شاهر سـلاحه في وجوه الغزاة في مدينة المكلا، ولم يعملـوا له تمثالاً لأنهم ضعفـاء، بل كلنا ضعفاء. ضعفنـا جميعنا لأننا لم نتحد على كلمة واحدة، علينـا أن نتحد جميعاً وبدون عنصرية فلا فرق بيننا، فنحن أبناء وطن واحد ودم واحد.

وبعد عتاب **الكبش** المتكرر **لكاسـترو**، بأن هذه سياسـة وعليك أن تتـرك المنبر لي أو لغيري فرد عليه كاسـترو: «الله هـو الذي يعرف الحقيقة أكثر مني ومنك، وإذا تركنا لك المنبر يا الكبش سـوف تمدح فـي حكومـة الشـرعية مثل مـا يفعل بقيـة الأئمـة التابعيـن للحكومة، بـل أصبحـت حكومة الشـرعية ترشـي هـؤلاء الأئمة كـي يمدحوها، ويخدروا الناس ويطمسوا الحقائق عنهم».

-6-

تدهـور الوضع فـي البلاد أكثـر من السـابق. فالقتل والسـرقات أصبحت هي الأخبار السائدة، لم تحكم حكومة الشرعية قبضتها على البلاد، ولا يبدو في هذه البلاد بطولها وعرضها دسـتور يحفظ حقوق المواطنين. وكأن الحكومة لها مصالح من هذه الفوضى.

يعيـد كاسـترو عبارتـه كلمـا تدهـور الوضـع: «إن الوحـدة بعد الحـرب أصبحت بلا شـنبات، فكيف لدولـة أن تحمـي مواطنيها من القتل والسلب وهي بلا شنبات والتي تعتبر علامة الرجولة والهيبة؟». وجزم كاسترو أن الوحدة التي بلا شـنبات هي وحدة مزيفة، لن تدوم طويلاً أمام العواصف والتقلبات السياسية.

أثناء مروري بإحدى قرى الوادي شـاهدت لأول مرة في حياتي على سفوح الجبال رسمة بارزة (للحصان)(*) وبجنب الحصان رسمة (الشمس)(**) مشرقة والحصان رافع رجليه إلى الأعلى وكأنه يصهل، أو كعلامة النصر، والشـمس كأن خيوطها تبشـر بمستقبل أفضل لهذه البلاد، بـلاد الكفرة الماركسـيين كما تقـول حكومة الشـرعية. ولكن واقعنا يقودنا إلى أن حكومة الشرعية ستجعل حياة الناس في الجنوب تشبه حياة الحرافيش وسوف نصبح كلنا طبقة واحدة في الجنوب هي

(*) الحصان: شعار حزب علي عبد الله صالح حزب المؤتمر الشعبي العام.

(**) الشمس: شعار حزب الإصلاح، وهذان الحزبان تقاسما حكم البلاد بعد حرب 1994.

طبقـة الأخدام، فلا شـيخ ولا سـيد، ولا قبيلي، ولا خـادم ولا صبي، ولا عبـد أو جعيل، كلنا سـنصبح أخـدام لحكومة الشـرعية ومواطني الحصان والشمس.

عندمـا قابلـت الدكتـور عيدروس سـألته عـن حكايـة الحصان والشمس المرسومين على جبال الوادي.

قـال لي: هل تتذكر يا عقرون الرجال الذيـن يدورون في الوادي وكل واحد يحمل بقشة على ظهره؟

قلت له: نعـم أتذكرهم جيداً بـل كنت أقابلهم عندمـا كنت أبيع الفجل متنقلاً بحماري في الوادي.

- هـؤلاء يا عقـرون يعملـون لـدى دولة الشـمال فـي جهاز الاسـتخبارات، يمشـطون الـوادي وكأنهـم بائعـو سـلع ومسـتلزمات نسـائية، وفـي واقع الأمـر كانت لهـم مآرب أخرى. كانـوا يعملـون بخبث، فلـم تخطر علـى بالنا هذه النوايـا القـذرة التـي يحملهـا نظـام علـي عبـد الله صالح، من أجـل خلق واقـع جديد يخدم مشـروعهم الذي شـنوا الحـرب مـن أجله، وهو مشـروع السـيطرة علـى الجنوب ونهب ثرواته ومسـخ هويته، وتجهيل شعبه. بكل أسف يا عقـرون، العيـب ليس فيهم، بـل في أجهزة دولـة الجنوب الاسـتخباراتية التـي لـم تكتشـف نوايـا هـؤلاء وأهدافهم غيـر الوطنية. تسـللوا إلـى حياتنـا، كمقاوليـن، ومتجولين بعرباتهم، وكان هدفهم خدمة الفندم علي لتحقيق مشروعه لمدى طويل وهو مشروع أسري وطبقي مقزِّز.

عليك أن تعيد شريط ذاكرتك قليلاً يا عقرون، واسأل عن عفيف صاحب الخضرة الذي يأتي من مدينة سيئون إلى الوادي؟ هل تعلم بأنه مات؟

- هل تقصد يا دكتور عيدروس أن هؤلاء الذين رسموا الحصان والشمس على الجبال هم الذين قتلوا عفيف صاحب الخضرة الذي دائما ينادي خضرة.. خضرة... خضرة، ويتنقل بسيارته الزيزو من قرية إلى أخرى؟
- عقرون يا ابني، عفيف مات موتة ربه، ولكن هؤلاء هم قتلوه معنوياً. فقد حاربوه في لقمة عيشة، فلم يكتفوا برسم الحصان والشمس على جبال وادينا، بل قاموا بتأسيس أسواق للخضرة وليس هدفهم الخضرة بل كان هدفهم انتشار السلاح وبيعه في الأسواق، وأيضاً الترويج لثقافة القات وتأسيس سوق له. هي خطوات قاموا بها إلى أن تمكنوا من السيطرة على البلاد وعلى عقول الشباب. خطة نظام صنعاء هو تخدير الشباب بالقات، وسوف يجعلونهم يلتهون به ولا يهتمون بأرضهم، والأخطار التي تحدق بها وبثرواتها. فبعد أن وقفت أصوات الرصاص في 7–7–1994م بدأت حرب من نوع آخر وهي أكثر فتكاً بالإنسان وحياته، وهذا النوع هو تجريد الإنسان في بلاده من إنسانيته وطمس هويته داخل وطنه، وزرع الفتن بين أبناء الوطن الواحد.

يا عقرون إن هؤلاء الذين رسموا الحصان والشمس على جبالنا

هم الذين ضيّقوا على المسـاكين وأوهموهم بأنهم سـوف يؤسسون لهم أسواقاً خاصة، ولكن نيتهم لم تكن من أجل الخير بل من أجل بيع السلاح في الأسواق، السلاح الذي نهبوه مـن مخـازن الجنـوب حتى أصبحـوا تجار أسـلحة يحتكرون السـلعة ويتطاولون في البنيان على حساب لقمة أطفالنا. أما الطـرف الآخر من هـؤلاء فهدفهم بيع كميات أكثر من القات لأبناء البلاد، لكي تنشـط تجارتهم من هذه النبتـة التـي تأتينـا من مـزارع الحصـان والشـمس وتصب الأمـوال فـي خزينتهـم، ومـا زال هدفهـم تحويـل شـعب الجنـوب إلـى شـعب مسـتهلك وكسـول، لا يعمـل، ولا يطمح وسوف يغرقونه في مستنقع المخدرات، كي يصبح شـعباً لا يقـاوم ولا يقف ضـد ظلمهم وفسـادهم في نهب البلاد وقتل الإنسان.

كلام الدكتـور عيـدروس جعلنـي أقـف وأعيـد النظر في أشـياء كثيرة. أفتش في ذاكرتي عن الوجوه القديمة التي عشـت معها، والآن أشـاهد هذه الوجوه وهي تذوب وتتلاشـى أمام السيل الجارف الآتي من بلاد الحصان والشـمس. تختفي وجوه بـلادي ويحل مكانها بائع القـات، وبائع رصاص البنادق. عفيف غاب عن المشـهد، كما غابت وجوه كثيـرة. الحياة لم تعد تقبل علينا كما كانـت، ولم يعد أحد يأتي من مدينتي سـيئون وتريم لبيع الخضرة فـي الوادي، ولم يعد صاحب (الجلب)(*) يسـوق أغنامه كعادته متنقلًا به في الـوادي يعرضه للبيع.

(*) الجلب: الأغنام التي تعرض للبيع.

كل المشاهد الراسخة في ذاكرتي بدأت تتلاشي ويحل محلها السوق العشـوائي الذي وجد لأهداف كثيرة تخدم لصوص الحكومة. مشهد الشـرطة وهي تحقق أمام الناس فـي قضية مريومة لم يغـادر ذاكرتي. صـوت مريومة ما زال صداه حاضراً فـي أذني وهي تحاول أن توضح للشرطة طريقة يسلم في النيل من كرامتها. كاسترو ما زال متهماً جاره الكبش بأنه عميل لقوات الشـرعية. ومشـهد العنصرية الأكثر حضوراً في المجتمع والبيت الشـعري الذي يردده البعض (قبيلتي غلابة.. كم من قبيلي كسـرنا نابه). وأنا أعيد على نفس المنوال (الشرعية غلابة.. كم من عزيزٍ كسرت بابه). كسروا أبواب الناس وأهانوا كرامتهم باسم الشرعية. شرعيتهم التي تطعم من تبعهم بأموال حرام.

شـعرت بالوحـدة والضيـاع. كل شـيء يتحـول بسـرعة غريبة. تغيـرات لم نعرفهـا من قبـل وكأنني غريـب على الـوادي، وكأن هذه الوجـوه الجديـدة التي رسـمت الحصان والشـمس علـى الجبال هم أهل البلاد الأصليين. كيف رسـموا هذه الشـعارات؟ ومتى؟ وكأنهم يتخفـون وهـم يقومـون بعملهـم هـذا، وكأن وراءه مغازي وأسـراراً. رسـوم الحصان والشـمس على جبال البلاد، هي علامـة الاغتصاب، اغتصاب الأرض والإنسـان معاً. الجريمة أصبحـت موثقة بالصوت، والصورة، والشهود، ولكن أين المحكمة والقاضي؟!

أسـمع صوت صاحب القات وهو يتجادل مع أهل الوادي على سـعر (بندل القـات)(*)، والصـوت الآخر بالقـرب منه يتفاخـر بنوعية المسـدس، وصوت العسـكري يرن في أذني في نقطـة عبد الله غريب

(*) البندل: حبات من القات.

وهـو يقول لسـائق السـيارة الزرقـاء موديل 1979 أشـتي حـق القات، وصوته وهو يأمر السائق بأن (يحن) يمشي.

نمضـي في طرق متعرجة فـي الحياة عندما يفقـد القانون مكانته في البلاد، نعيش بين العشـوائيات، لا مجال أن نتطلع إلى المسـتقبل في ظل التيار المعاكس الذي تقـوده الأيادي التي نصبت في كل جبل وعمارة الحصان والشمس ضد حياتنا.

أصبحت حياتنـا عبارة عن حزمة قات، وحفنـة رصاص، وكلمة حن عندما يدفع حق الشاي.

تحول الناس إلى هياكل، لا إرادة لها، مسلوبة حياتهم وإرادتهم، ويقال إن من رسـم الحصان والشمس هم من سحر هؤلاء وحولوهم إلى وضع صامت.

ويقال إن أشياء كثيرة كانت سبب تدهور الحياة في الوادي ومنها هؤلاء الذين فتحنا لهم قلوبنا ووثقنا بهم وجعلناهم يدورون ببقشـهم بين الديار وتركنا نساءنا تشـتري منهم وتتعامل معهم كأنهم إخوة لنا، وكانوا السـبب في تحويل البلاد إلى هذا الوضع السيئ بل الأسوأ في تاريخ البلاد.

عائض (المزمّر)(*) أشـهر مزمّر في الوادي، ومن شهرته وخبرته أنـه يواصل أداءه علـى المزمار لفترة طويلة في المـدارة لا يدع مجالاً إلا لصـوت مزماره مع قـوة حنجرته وصوته الجميـل في الأداء، ومن خصائصـه أيضـاً، أنـه الوحيد الـذي يزمر (ويشـترح)(**) فـي اللحظة نفسها مع (المشترحين)(***) في المدارة، ويكون داخل المدارة مزمراً ومشـترحاً، ولا يركن نفسـه في مـكان واحد كبقيـة (المزمرين). أتقن عائض هـذا الفن منذ صغـره، وذهب إلى عدن مـرات متعددة لإحياء مناسبات شعبية بصحبة فرقته الشعبية.

تُدعـى فرقة عائـض فـي المناسـبات الحكومية، فيكـون عائض حاضراً بمزماره فيها بل يفتخر أثناء حديثه عن تلك الأيام التي يعتبرها أيام العز. كم تمنيت أن أكـون مثل عائض تقدم لي الدعوات لحضور مناسبات الدولة، وأشاهد الشخصيات الكبار وأسافر كما سافر عائض إلى دولة كبيرة ممثلاً للوطـن. فقد عاش عائض فترة الدولة التي تهتم بالفرق الشعبية التي لها مكانة كبيرة لدى الدول المتقدمة. فهذه الدول تهتم بتراث الشعوب لأنه صوتها الحقيقي.

أخبرني عائض عـن الحفل الكبير الذي أقيم فـي العاصمة عدن

(*) المزمر وجمعها المزمرون: تعني العازف أو العازفين على المزمار.

(**) المشترح: الراقص.

(***) المشترحون: الراقصون. والفعل يشترح أي يرقص.

في أيام الرئيس سالمين، والذي حضره عدد كبير من القيادات الوطنية الجنوبيـة، وكذلـك مـن الشـخصيات العربيـة والدولية، من رؤسـاء، ووزراء، وأدباء، فكل هؤلاء يشـاهدون رقصنـا، بل من عظمة اللحظة ومكانتها لدى الرئيس سـالمين أنه لـم يتمالك نفسه من الفرح، فدخل إلى وسط الفرقة يشـترح، كان خفيفاً أثناء الشـرح الذي أجاده بطريقة لافتة للنظر، وكأنه عاش في دوعن.

اسـتأنف عائض حديثـه: كان الرئيس سـالمين رحمـه الله يملك روحاً شـعبية، ينتمي إلى كل الناس، ولا ينحاز إلا للمواطن والوطن. قتلـه الأوغاد وغـدروا به.، وقد قـال الرئيس كلمته الشـهيرة قبل موته بلحظات: «اليوم فـي ظهورنا وغداً في ظهوركم». وبالفعل أنسـلخت الظهـور بعد مقتله، بل أنسـلخ الوطن، وظهـرت كل الحقائق أن وراء قتله دولاً كبيرة لها أيادٍ خائنة في البلاد.

قـال عائـض: عندما اقتـرب مني سـالمين في المـدارة، خاطبني بالاسـم «أيوه يـا عائض هكـذا.. هكذا، لبـوه.. لبوه، شـرح يا عائض شرح».

سألت عائض: وهل الرئيس يعرفك؟

كيف لا، وأنـا عائض الفنان، بـل يعرفني عندما جـاء إلى دوعن وافتتح مستشـفى الجحـي. والله اسـتقبلناه بالطبل والمزمـار. وبعدها ألقـى كلمة مخاطبـاً الحضور، وحث أبنـاء البادية علـى أن لا يحملوا السـلاح، فنحـن في عهـد جديد ودولة سـتكون لهـا مكانـة كبيرة في المنطقة.

بـل تقدم لـي دعوة شـخصية من الرئيس سـالمين فـي كل حفل

تقيمه الدولة، وخاصة في أعياد الثورة، فهو يعرفني تماماً من أول زيارة له إلى الوادي.

عندما سمع الكبش حديث عائض عن الرّئيس سالمين لم يتمالك نفسه، وضحك، وقال: الله يهديك يا عائض خفف علينا شوية شوية. شف ربك بيخسف بنا الأرض من (الهبير)(*) حقك (يا هبار)(**).

- أنا هبار يا الثور، يا الكبش؟ أنت ما تحترم الكوادر الفنية في البلاد مثلي، بل أصبحت مريضاً وبك هوس غير طبيعي تحرم وتحلل على مزاجك، وكأنك تخرجت من الأزهر.

أنا عائض أيها الكبش، وصلت شهرتي إلى الاتحاد السوفيتي، وسافرت إلى تلك البلدان ومثلت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في الفنون الشعبية. أما أنت ولا مرة واحدة مثلت وطنك لا في مناسبة داخلية ولا في مناسبة خارجية، فقط تردد مثل الببغاء هذا حرام وهذا حلال. ويا ليتك تحرم الفن الشعبي والفنون الأخرى من علم درسته، بل تردد ما تسمعه من أصحاب (الدعوة)(***) وكأنهم أنبياء. اتق الله يا الكبش. نحن نعرف الإسلام، ونعرف الحرام والحلال قبل وحدتك وحكومتك التي تأكل الأخضر واليابس باسم

(*) الهبير: الكذب.

(**) الهبار: تعني الكذاب.

(***) أصحاب الدعوة: بعد حرب 1994 أتت مجاميع من الشمال تجوب مناطق الجنوب وهي تدعو الناس إلى التعاليم الإسلامية.

الله. لعنة الله عليكم جميعاً.

- استغفر الله ياعائض، لا يجوز أن تلعن عباد الله هكذا.
- أنا ألعـن من يريد أن يعلمنا الإسـلام، وكأننـا كفار قريش. هـذه مهزلة لن يتقبلها الشـعب. فقط الحمير مثلك سـوف يضحك عليهم باسم الدين.

لـم يتمالك الكبـش أعصابـه وهجم علـى عائض محاولاً شـجّ رأسـه بحجر. لم ندع الكبش المشـاكس دائما بأن يصـل إلى عائض. أمسكناه، ونزعنا الحجر من يده، والكبش يسب ويشتم عائضاً ويصفه بأنه كافر، شيوعي، وانفصالي.

-8-

عسكر علي قال الأسف
يا قائد الدولة أسف
يا ليتكم من غير جيش
من يدكم ضاعت حنيش
....
يا صالح أصدق بالخبر
هل استلمتوا بالجزر
شيكات بنكية وكيش
وبالبيس بعتوا حنيش

صوت ثائر ردده عائض، يصلح أن يكون على الصوت (القبلي)[*] قلت له: ربما (غياضي)، فقال لي: لا يهم يكون غياضي أو (سركالي) أو (هبيش)[**] الأهم من هذا أن يكون صوتاً متميزاً أي أن يكون متقوناً يهز المدارة ومن بداخلها والأهم أن يهز نظام علي عبد الله صالح هزاً.

بدأ عائض يرتب الكلمات على نغمات مزماره، يكررها أكثر من مرة على إيقاعات مختلفة، فصوت المزمار يجب أن يكون متناغماً

(*) القبلي، غياضي، سركالي.
(**) هبيش: أسماء رقصات شعبية.

مع الكلمات. وعندما انتهى منها، ومن محاولاته المتعددة في ضبطها اتضح تناسقها.

هكـذا بدت لـي النغمـة الجديدة بمزمـار عائض، جـزر حنيش، ضياع، أو بيـع من قبل النظام، فكل الطرق تـؤدي إلى فضيحة، ولكن فضيحة من العيار الثقيل، لم تكشـفها لنا قنوات التلفزيون ولا صوت الراديـو، بـل كان السـباق إلـى هـذه الفضيحـة الشـاعر عسـكر علي الجنوبي اليافعي، والذي كشفها للشعب وخاصة شعب الجنوب. ولا أدري هل شـعراء الشـمال جهروا بهـذه الفضيحة بأشـعارهم أو أنهم التزموا الصمت أو أنهم يعيشـون لحظة النصر على شقيقهم الجنوبي، ويؤيدون سحقه؟

اتفقت مع عائض على ألا يغني بهـذه الكلمات إلا عندما يكون هناك عرس كبير في الوادي لتصل الرسـالة إلى عـدد كبير من الناس. بالمزمـار والشـرح في المدارة سـتصل هـذه الكلمات إلـى أكبر عدد من أبناء الوادي، وسـوف نضرب عصفوريـن بحجر واحد. أولاً علينا أن نوعـي النـاس بالحالـة التي وصلـت إليها البـلاد. والأمـر الآخر، علـى عصابة نظـام صنعاء أن تـدرك أن هنـاك أصواتاً تنـادي بالتغيير، وهذه الأصوات سـوف تخلق ثـورة على هذا النظـام القمعي البغيض العنصري والذي لا يمثل الوحدة واللحمة الوطنية مطلقاً.

هنـاك أصـوات وأن كانت صغيرة سـتكبر مع الأيام، وسـوف يكـون لها صـدى. فصوت كاسـترو أحـد الأصـوات المناضلة في الوادي وقد وقف بـكل قوة في وجه العقول التي تؤمن بأن حكومة الشـرعية هـي الحكومـة الوحيدة التـي تحكـم بالقرآن والسـنة في

الجزيـرة العربيـة. والصـوت المهم هـو صوت الدكتـور عيدروس الـذي نعتمد عليه فهـو من نفـس فصليتنـا، فصيلة اللون الأسـمر، وأيضاً هو ابن قريتنا، وقد بعث إلى روسيا في عهد سالمين، وتزوج روسـية، عشـقته وعشـقت لونه القمحي. فاللون القمحي مرغوب في تلك البلدان، فالنسـاء هنـاك يذبن أمامه، يستسـلمن له، وكانت زوجتـه واحدة مـن المستسـلمات لعيـدروس، بل ذهبـت معه إلى عدن وعاشت معه هناك إلى أن توفاها الله، وأقسم عيدروس أنه لن يتزوج غيرها. فهي أفضل من نسـاء وطنـه اللواتي ينظرن إلى اللون القمحـي نظرة اسـتصغار، ولذلك يقـول عيدروس إنهـا أفضل من مئة مسـلمة، فكل المسلمات البيض عنصريات بغيضات يستحقرن اللون القمحي والأسود.

هيئة عيدروس وشكله يميلان إلى الفنان فيصل علوي، والبعض عندمـا يشـاهده يعتقـد بأنـه الفنـان فيصـل علـوي. ويمثـل الدكتـور عيـدروس صـوت الكاتب الذي ينشـر مقالاته باسـم مسـتعار والذي يقلق النظـام، وهناك أصوات، ربمـا يعرفها عيـدروس تقف في نفس الخـط، وهو خـط المقاومة بـكل الطـرق، بالفـن، توزيع منشـورات موج، القصائد الشـعبية التي تؤدي تدورها في فضـح النظام، كل هذه الأصوات سـوف تنفجر يوما وتحرك الشـارع على نظام علي عبد الله صالح العائلـي، ويتحول الجنوب من رماد بعد الحرب إلى ثورة تعيد هيبة الوطن وكرامة الإنسان.

أصبح الأمل كبيراً عندما شـاهدت الناس يتفاعلـون في المدارة على هذه الكلمات وكأن الرسالة وصلتهم بوضوح. شاهدت كاسترو

أكثر الناس في المدارة (يتقزح)(*) بخفة، كلما سـمع (يا ليتكم من غير جيش من يدكم ضاعت حنيش)، لأن هذه الكلمات جاءت في وقتها، وكأنهـا تؤكد كلماتـه أثناء الحـرب بالسـقوط الأخلاقي لـكل القوى السياسـية التي تمثل الشرعية والتي أيدت الحرب على الجنوب ونهبه كغنيمة حرب.

البعـض يهمـس للآخر فـي المـدارة، ويوضح له قضيـة (جزيرة حنيش)(**) وقضية الوطن وقضية الإنسان الذي سوف يكون رماداً في الجنوب إذا استمر النظام بهذه الطريقة. والبعض يحرك رأسه انسجاماً مع مزمار عائض وأدائـه، ومع الكلمات الرنانـة التي وضعت حصان علـي عبد الله صالح وشـمس أولاد عمه في خانة واحـدة، وهي خانة الخيانـة للوطن. الوطن الذي اسـتقبلهم في عدن بالـورود، والزهور، والياسـمين، عند إعلان الوحدة، ثم أرسـل إليهم الزعيم الموت بكل أنواعه.

كلمات عسـكر علي أعـادت إليّ مشـهد الجيـش عندما زرت المكلا بعد الحرب بشـهور قليلة،عندما وضع هذا الجيش الدبابات الحربية علـى قمم الجبال الصغيـرة في المكلا وعنـد بعض مداخل المدينـة. وحـوّل مدينة المـكلا إلى معسـكر تحيط به المعسـكرات مـن كل الجهات، من جهـة الريان، وخلـف، وبروم، عسـكر الحياة المدنيـة، ولقـد شـاهدت حيـاة المدنيـة تذوب وتتلاشـى أمـام هذه

(*) يتقزّح: يرقص ببراعة وزهو.

(**) جزيرة حنيش: تقع في البحر الأحمر وقد احتلتها إرتيريا عام 1995 وفي عام 1998م أعلنت لجنة التحكيم الدائمة أنها تنتمي إلى اليمن.

الآلآت الحديدية.

وعندما قابلت الدكتور عيدروس في المكلا أخبرني بأنه سوف ينشر مقالاً باسم مستعار والمقال بعنوان (حرافيش 94). وسوف يصف هذه الحرفشة الجديدة والتي لم تعهدها البلاد من قبل. بل أقسم بأنه سيحرك الشارع قبل الهاوية. كأن عيدروس يحاكي أفكاري، وخاصة عندما وصف هذا الجيش القادم من الشمال بالحرافيش. فملابسهم رثة مثل ملابس الحرافيش الذين يعيشون في الوادي تحت سقف العشش، ومثل الحرافيش تماماً يجوبون شوارع المكلا بطريقة لا تدل على أنهم ينتمون إلى مؤسسة عسكرية. يؤكد الدكتور حديثه إليّ بأن من تماشى مع هؤلاء فهو حرفوش سواء أكان من الشمال أم من الجنوب، فهؤلاء من تصرفاتهم وهيئتهم الرثة لا يملكون مشروعاً وطنياً، ولن ينهضوا بالبلاد بتاتاً. فالحرب كشفت وجوهاً كثيرة تحب الحرفشة، والفوضى، وعدم الانصياع للنظام.

هذا طوفان خطير ومن يدافع عنه فهو ينتمي إلى زاوية ضيقة هي زاوية المصالح والسقوط في المستنقع الذي رسمه لهم النظام. النظام جرّ البعض من أبناء البلاد إلى ممارسة الدعارة للشخصيات المهمة، وأمسك عليهم فضائح يهددهم بها، وجعلهم أكثر ذلاً أمام أسيادهم، وجعلهم أسوداً على المساكين والضعفاء من أهل البلاد.

لست أدري ما هي حكاية فرج مع الدكتور عيدروس، ولست أدري لماذا هو متحامل عليه بهذه الطريقة ويصفه بأنه واحد من الذين باعوا كرامتهم وسمعتهم من أجل وظيفة ومصالح شخصية. يخبرني عيدروس عن حكاية الفندم فرج في هذه البلاد وكيف أصبح شخصاً

مهماً لدى صنعاء بمجرد علاقته القوية بالفندم الكبير والذي كان فرج شاهداً على أسرار متعلقة بالقشطة البيضاء التي يجلبها فرج للفندم الكبير الذي يعشق القشطة وبياضها ولولا القشطة لم ولن يصل فرج إلى هذه الرتبة الكبيرة في البلاد.

صلعة فرج تثير سخرية الدكتور عيدروس، وأيضاً يسخر عيدروس من تقلبات فرج في الحياة، فقد كان اشتراكياً، ومن ثم من مناصري الشرعية، وكلما جاء نظام جديد رحب به فرج، قائلاً: «يا مرحباً، يا حيا وسهلاً، الدار داركم ونحن إلا (خوه)(*) نتعارف» هكذا قالها عيدروس مقلداً فرج في طريقة الترحيب.

فرج القصير القامة الحاد الشنبات والأكثر صلعاً لم يتوقع منه الدكتور عيدروس تدهور أخلاقه، وكيف أصبح ذا مهن أكثر غموضاً في بعضها من أستاذ ثانوية، إلى رئيس شركة كبيرة يقال إنها من أملاك علي عبد الله صالح إلى أن أصبح مسؤولاً كبيراً منحت له الوظيفة بمقابل القشطة البيضاء التي يتفنن في اختيار أجودها ويقدمها للفندم الكبير.

قلت للدكتور عيدروس:

- يا دكتور هت كلام يدخل العقل عن فرج... لا لا مش مصدق هذا الكلام أبداً، بأن فرج قواد، مستحيل يا دكتور أن يكون فرج بهذه الطريقة ويحقق رغبات الفندم من الألف إلى الياء بهذه الطريقة المذلة والمخزية.
- يا عقرون الفندم فرج اكتشف أمره عندما حاول مع بنت

(*) خوه: إخوة.

شخصية مرموقة في (حافتنا)[*]، ورفع أبو البنت قضية على فرج، وضاع أرشيف القضية، واحترقت كل الملفات في القسم بفعل فاعل، بل تم تهديد أبا البنت بالقتل إن فتح الموضوع أو رفع قضية على فرج في المحكمة، وقد وصله التهديد صارماً وقوياً من جهات أكثر نفوذاً في البلاد. خاف أبو البنت المسكين، وأصبح لا حول له ولا قوة. لكن البعض من ضعيفي النفوس وقعوا في مستنقع الرذيلة والسبب مجموعة من صعاليك البلاد يبحثون عن مصالح مع النظام الجديد نظام الشرعية.

فرج وراءه مصائب يا عقرون. مصائب الله لا يستر عليه. من نهب الأراضي وابتزاز الناس وتهديد الضعفاء كي يتنازلوا عن أراضيهم وخاصة التي تقع في مكان مميز، ويستحوذ عليها، بإصدار وثائق مزورة، ويدعي بأن الأراضي من أملاكه. فرج يمتلك عصابة من أبناء البلاد يا عقرون، بل من جميع طبقاتهم. الكل ذاب مثل ذوبان العروسة للعريس في ليلة الدخلة، وهؤلاء قد دخل عليهم الفندم الكبير في ليلة سوداء لا يعلم بها إلا الله وذوبهم جميعاً، وأكبر شنب ذاب أمام رجال الفندم الكبير ومن لم يذب في بداية الأمر أوقعوه في قضية أكبر منه تجعله يستسلم ويطلب المغفرة من الفندم الكبير في صنعاء. فالكل من هؤلاء يخدم فرج، وفرج يخدم الفندم الكبير.

يحاول فرج أن يلمع شخصيته في البلاد، ويحاول بأن يظهر

(*) حافتنا: حارتنا.

بمظهـر الرجـل الصالح الـذي يبحـث عـن مصلحـة المواطنين وهو يمتلك علاقـة أخطبوطيـة تصل إلـى القادة العسـكريين، ويقـدم لهم خدمات لا تُعد ولا تُحصى، وبسرية تامة إلا ما قد تسرب عنه من قبل المقربين من الفندم.

-9-

لم أكف عـن ملاحظـة تصرفات النـاس وانتظارهم في شـوارع المُكَلاّ، يمشون بهمومهم من شارع إلى آخر. أنظر إليهم، أشعر بأنهم يتألمون في الحياة. يعيشـون حياة وكأنهم أمـوات. القلق مرافق لهم. كيف يشـعر المرء بالسـعادة وهناك من ينتزع اللقمة من أفواه أطفاله؟ الوجوه الجديدة الآتية من الشمال بعدد كبير بعد الحرب غيرت ملامح المكلاّ، بل غيرت التركيبة السـكانية. لم يرسـل لنا الفندم إلا العسكر والطبقـة المعدمة؟ هذه الوجوه لم تكتفِ بالحياة فقط بل قامت بتغيير أسـماء الشـوارع والمدارس. فالجبال في المكلاّ فعلوا بها كما فعلوا بجبال دوعن برسم الحصان والشمس. لوثوا الطبيعة بتلك الشعارات التي تغضب أهالي المنطقة فهي تحمل العداء لهم، تشعرهم بالهزيمة والإذلال. هـذا اسـتفزاز واضـح للمشـاعر وكرامة المدن والإنسـان. لم يرسـموا شـعاراتهم بعد الوحدة مباشـرة ولكن بعـد انتصارهم في حرب 1994. لم يقتنعوا ببيوت المكلاّ المتواضعة بل قاموا ببناء بيوت كبيـرة على قمم الجبـال، وهم يركبـون أفخم السـيارات. طفرة غريبة لـم تكن من نصيب أهل المكلاّ، ولـم تشـهد لها مثيـلاً من قبل، وهذه الطفرة فقط من نصيب فئتَي الحصان والشـمس اللتين تنهبان السـماء والأرض والبحـر بقانـون الشـرعية. فئتان خاصتـان جـداً، تريدان أن تملكا البـلاد وثروتها أمـا العباد فـلا يهمهما أمرهم. شـاهدت رجال الحصان والشـمس أكثـر من مرة وهم يعبـرون نقاط التفتيش بسـرعة

فائقـة، لا أحد يعترض طريقهم، كل من في نقاط التفتيش يضرب لهم تحية عسـكرية بطريقة ذليلـة. حتى أبناء العسـكر تُضرب لهـم التحية العسـكرية، وكأنهـم أصحاب رتب عسـكرية. لا غرابة فهـذه حكومة الشـرعية. هؤلاء يعيقون مسـيرة حياتنا ومسـتقبلنا بالسـيطرة على كل الوظائف بقوانين الوحدة الجديدة التي تقيد الإنسان وتغلّ يده وتكبّل عقله معاً.

الجسـران الصغيران ممتدان على (العيقة). أعبر يومياً تقريباً إلى شـرج باسالم عبر ذلك جسـر عَلوي. أمضي وأنا في طريقي تصادفني (معصـرة السـليط)(*)، أتجه يميناً بعـد المعصرة إلى أن أصل الشـارع الأول، أتجـه يسـاراً نحو العجـوز التـي تبيع البيـدان المكـوّم أمامها في سـلة كبيرة، أقف فوقها أتحسـس (الشـلنقات)(**) التي في جيبي، أسـحب منها بقايا الدولة الجنوبية، أدفع المبلـغ مقابل البيدان. يوجد بالقرب من بائعة البيدان كشـك يعرض صحفـاً، أقف بالقرب منه أقرأ العناويـن مـن بعيـد، عناوين عريضـة تتحدث عـن إنجـازات الرئيس التـي لم أشـاهدها علـى أرض الواقـع. فقط إنجـازات في الهـواء أو كما يقول البعض: «هرفـة جرايد». بعد أن أؤدي صلاة العصر بسـاعة أعود إلى الشـارع نفسه، أذهب مباشـرة إلى صاحب العربة الذي يبيع (الشـبس)(***) و(الباقية)(****) اللذيذة الطعم التي تشـتهر بها المكلّا،

(*) معصرة السليط: معصرة زيت السمسم.

(**) الشلنقات: عملة الشلن.

(***) الشبس: بطاطس مقلية.

(****) الباقية: الفلافل.

آخذ نصيبي من الشبس والباقية. آكل على دكة بالقرب من الكشك الكبير الذي يبيع الجرائد والمجلات.

كم هي الحياة متواضعة في المكلاّ، وهناك من يحاول أن يجرها إلى العقدة، وكأن صوت والد أيوب يصلني من قريتنا القابعة في وادي عمر بدوعن يقول لي: نعم، الحصان والشمس يقودان البلاد إلى التهلكة. كأن صوته الحقيقي يصلني من بعيد. يؤكد ما قد قلته عن العقدة في البلاد. أمضي إلى الشارع الثاني في الشرج، هناك مطعم صغير، اشتهر بصيادية السمك، الوجبة الشهيرة في المكلاّ، وما أن أدخل المطعم، أجلس على طاولة مشتركة مع زبائن عديدين يقدم لي طلبي وكأن الناس أسرة واحدة في هذه المدينة. ألتهم وجبتي، أحاسب صاحب المطعم، وأمضي في طريقي، يبلّلني العرق من شدة الرطوبة والحرارة المرتفعة، تقودني رجلاي إلى شوارع الشرج الملتصقة بعضها ببعض، التي ترصد تغيرات المدينة بصمت. أذهب إلى كبينة (التميمي) للاتصالات، أجلس إلى أن يأتي دوري، أثناء انتظاري، اسمع حديث المتصل المرتفع لأن عادة كثير من الناس أن يتحدثوا من الكبينة بصوت مرتفع يسمعه من هم خارجها وأغلبيتهم من القادمين من الأرياف.

كنت مصراً على السفر إلى السعودية، وكان اتصالي بقريبي في مدينة جدة كي يعجل بإرسال الفيزا، على أن أستخرج جواز السفر في القريب العاجل. السعودية هي المنفذ الوحيد لي من هذا الجحيم، والفيزا هي الشهادة لي بأنني مسلم، وسوف تدخلني الجنة المنتظرة هناك بالقرب من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

عـدت إلـى الدكتـور عيـدروس فوجدتـه ينتظرنـي كالعـادة في المقهى القابع في إحدى زوايا المكلاّ بالقرب من دوار الدلة، أخبرني الدكتـور عيدروس المكسـور الخاطر الشـامخ في الوقت نفسـه، بأنه فُصل من عمله بسـبب كتابة مقال يتحدث فيه عن الفسـاد الذي انتشر بعد حرب 1994. وأن هذا الوطن ليس الوطن الذي يعرفه سابقاً.

قال لي: اسـتدعوني إلى قسـم خاص للتحقيق معي. استجوبني شـخص لا أعرف اسـمه: أنـت متهم بالانفصـال وهذه التهمة سـوف تودعك السـجن فأنـت تحـرض بمقالاتك ضـد الوحدة والمشـروع الوطنـي الكبير الـذي نعمـل جميعاً من أجلـه. يا عيـدروس هل أنت مـن يكتب المقالات باسـم مسـتعار في الصحـف الخارجيـة، وتتهم فيهـا الفندم علي بأنـه يمتلك قصراً فـي المكلاّ أفخـم وأكبر من قصر الجمهورية بصنعاء.

نفيـت التهمة التـي وُجِّهت لي: في الواقع يا فنـدم أنني لم أكتب هـذا المقـال قـط، ولكـن الـذي كتـب هـذا المقال، قـد أصـاب كبد الحقيقـة، وأن الفنـدم علي يملـك قصراً فـي المكلاّ أكبر مـن القصر الجمهـوري في صنعـاء، وقد أصبـح قصر الفنـدم علي مثار سـخرية الناس في الشارع!

- يعنـي أنت تؤيـد صاحب المقـال الذي يحـرض على فك اللحمة الوطنية؟
- أنـا لا أؤيـد، ولكنـي قلت لـك رأيـي بصراحـة ووضوح، وعليك أن تحترمه يا فندم.
- أوكـي. وايش المشـكلة بأن يملـك الفندم علـي قصراً في

المكلاّ. ألا يحق له كإنسان؟

- يحق له بالشـرعية الجديدة أن يملك قصراً أكبر من القصر الجمهـوري. أما بشـرع الله فلا يحق لفندم علـي أن يملك هذا القصر الفخم ومعظم سكان المكلاّ يعيشون في بيوت متهالكة وهم أصحاب الأرض ويجب الرفق بأحاسيسـهم التي لا تتحمّل هذا البذخ.

قاطعني الفندم: أنت انفصالي. السجن فُرض عليك.

سُجن الدكتور عيدروس بعد هذه التهمة الملفقة، وقد خرج من السـجن بعد عشـرة أيام بكفالة. هكـذا أخبرني عن جزء مـن حكايته، وأصبحت أجالـس الدكتور عيدروس في معظم الوقت كعادتي عندما كان في الوادي. فعيـدروس يملك توجهاً جديداً ضد مشـروع الفندم علي الذي يقف ضد الإنسان في المكلاّ والبلاد عامة.

العينـان وحدهمـا تخونان صاحبهمـا، تفضحان علاقتـه بالحياة وبالطـرف الآخـر. ومـن خـلال عينيـك يـرى الإنسـان انكسـاراتك وهزائمـك أو انتصاراتـك فـي الحيـاة، وأحيانـاً صمتـك يكـون آيـة للعالمين. فعندمـا تصمت ينصت لصمتك العالم، تنكسـر على ذاتك فـي الحياة، تنكمش، تـذوب في أرجـاء المدينة، تتنقل بـك الأرصفة والشـوارع من مكان الى آخر، تحلم بالرجوع إلـى ذاتك الأولى أثناء الطفولـة وأنت فـي الـوادي الذي عرفـت الحيـاة الأولى فيـه، عندما كانت الشـمس لا تغيب عن جسـدك من الصباح إلى غياب آخر خيط من خيوطهـا، ويبـدأ الليل بحكايتـك التي لن تكشـف إلا بعـد مرور سـنوات طويلة مـن عمرك. ستكتشـف بدايـة النور وتعـود بذكرياتك

إلى (الحيود)(*) التي كنت تحوم تحت ظلها وتنظر إلى شموخها منذ الطفولة وترسم خيالاتك صوراً عديدة للحياة، والقيامة التي ستقوم وسيتنهي هذا العالم من آثامه. لم أرَ في حياتي انكساراً كانكسار هذا الوطن. لقد مزقته الحروب، واللصوص أكثر احتراماً في هذه الشوارع! أما أمثال الدكتور عيدروس فهُم خارج حياتهم التي يستحقونها. فقد وقف ضد الشر بقلمه إذ وجد سماسرة يتاجرون باسم الوطنية، ويدعون الخوف على تقسيم الوطن وأيضاً الخوف من نشر العنصرية.

كيف يصبح الدكتور عيدروس عنصرياً والفندم علي وطنياً من الدرجة الأولى، وهو يمارس كل أنواع العنصرية واللصوصية في مكتبه في الجوازات. طردني من مكتبه واتهمني بأنني لست يمنياً بل صومالي بسبب لون بشرتي السمراء واسمي (عقرون) الغريب عليه. حاولت إقناعه بأنني من وادي ليسر من دوعن ويوجد به وادٍ شهير اسمه عقرون. فكانت كلماته حاسمه بالخروج من المكتب الفخم الذي يبدو أثاثه أغلى من مبنى الجوازات المتهالك. أردت أن أحكي له حكاية الولي عقرون – التي حكتها لي جدتي – الذي عاش في دوعن ثم انتقلت قبيلته إلى فلسطين. وأنني من أحفاد ذلك الملك، ولكن الفندم علي لا يعرف شيئاً عن الوطن إلا الوحدة فقط. حتى أسماء مناطق الوادي وبقية مناطق حضرموت لا يعرفها. جاء من شمال الوحدة ويريد أن يصنفنا إلى صومالي وهندي وإندونيسي.

أتذكّر كلماته التي لن تغيب عن ذاكرتي ما حييت وهو يسألني:

(*) الحيود: الجبال.

(غقرون) أنت صومالي؟

قلت له: لا يا فندم أنا من دوعن.

- أول مرة أسمع باسم (غقرون) وهذا الاسم لا ينتمي إلى اليمن. أشتي الحقيقة قلي أنت يا (غقرون) من فين بالضبط؟
- يا فندم أنا حضرمي، واسمي عقرون وليس غقرون.

نهرني عندما قلت له أنا حضرمي ورد عليّ: مافيش حضرمي ولا جنوبي بعد اليوم خلاص كلنّا من اليمن. أنتم يا صوماليين تريدون تقسيم وطننا إلى مسميات لا أساس لها. اليمن واحد. والله واحد. والرئيس واحد. يا الله انقلع يا صومالي وما فيش جواز.

لم أكن أنا الوحيد الذي طُرد من مكتب الفندم علي فقد سبقني الكثير. فنحن لا وطن لنا بعد حرب 94. لم يقل لي أحد من قبل يا صومالي وأنا الحضرمي (أصل وفصل) إلا بعد الوحدة. أتذكر عبارة والد صديقي أيوب وهو يقول أثناء الحرب بأن شنبات الوحدة قد سقطت ولم أستوعب هذه الكلمات إلا الآن.

لن أكون أنا الأول ولا الأخير المنكسر في هذا الوطن. أنا واحد من المنكسرين وواحد من الباحثين عن وطن داخل أوطان وعن وجه داخل وجوه كثيرة تجعلك تضيع في هذه الدوامة الجديدة.

اسمي الفريد عقرون وهو الاسم الذي يميزني عن بقية الناس فهو ينتمي إلى أشهر وادي في دوعن. وسيرتي ستعرفها أجيال بعد أجيال، وستعرف عقرون الأرض والإنسان.

فالإنسان يعيد نفسه كالتاريخ وأنا اليوم أعيد نفسي بروح

أخرى عاشــت مراحل عدة في الحياة شاهداً على ألمي وألم الآخرين وانكســارهم وهروبهم من الخوف والمصير المجهول في وطن اسمه اليمن الموحد.

دخلت استديو (الأنس) القابع بجنب مقبرة يعقوب، أقدم مقبرة في المدينة وأكثرها قداسـة ففيهـا قبور الأولياء والصالحين. أتسـاءل كيـف سـمحوا لصاحب الأسـتديو بـأن يفتح محـل بجنـب المقبرة؟ وكيف سـيكون حال الموتـى وهم يسـمعون الأغانـي؟ بالتأكيد أنهم يسـمعون أغاني أسـتديو الأنس كل يـوم، وخاصة في الصبـاح عندما يقوم صاحبه أنيس كل صباح بوضع سـماعات كبيرة خارج الأستديو بجنـب الأبـواب المطلة على الشـارع. ويقوم بتشـغيل أغانـي جديدة لجذب الزبائـن وكنت واحداً مـن الزبائن الذين يدخلـون إلى محله. أثنـاء إقامتي فـي مدينة المكلاّ شـاهدت أكثر من أسـتديو فـي المكلاّ خلاف الوادي الذي لا يوجد فيه أستديو، وقد جذبتني الأستديوهات فـي المكلاّ وخاصة في شـارع الشـرج الرئيسـي والأغانـي ترتفع من الصباح إلى بقية الأوقات وتكون السـماعات خارجية يسـمع الأغاني كل العابرين، وكأن الناس تبدد وقتها بهذه الأصوات الآتية من الوطن العربي.

عندما كنت في أسـتديو الأنس، سـمعت بالصدفـة أغنية جديدة لفرقة كويتية اسمها (ميامي) وتقول كلماتها:

دور بيها يا لشمالي دور بيها

دور بيها ولا تبالي كو عليها

وأثناء ذلك، دخل شـخص إلى الأسـتديو مسـرعاً، وكأنه يعرف

صاحب الأستديو الذي لا تختلف سحنته عن لون بشرتي السمراء التي لم تعجب الفندم علي. وعندما سمع هذا الشخص الأغنية أرتفع صوته حنقاً وأمر صاحب الأستديو بأن يوقف الأغنية وهو منزعج بطريقة تلفت النظر.

«خلاص شمالي شمالي في كل مكان. في العمل في الشارع يا أخي أغلق هذا الهم الذي يطاردنا في كل مكان».

فلم يستمع له صاحب الأستديو ولم يوقف الأغنية، بل ابتسم ابتسامة عريضة فيها شيء من الخبث. وقام يرقص على أنغام الأغنية ليغيظ صديقه ولم يكتف بالرقص بل قام بترديد الأغنية أثناء رقصه مع فرقة ميامي:

دور بيها يا لشمالي دور بيها

دور بيها ولا تبالي كو عليها

عندما استمعت للأغنية جيداً اتضح لي (دور بيها وكو عليها دور بيها) وراقت لي (دور بيها ولا تبالي دور بيها) ووددت أن أحذف (كو عليها) والتي ربما تعني باللهجة الكويتية (لا تشيل همها) أو أن الدنيا لا تستحق كل هذا التفكير والعناء. ولكن من هو الشمالي في هذه الأغنية التي تريد فرقة ميامي الكويتية بأن يدور بهذه الحياة وأن لا يتوقف؟ تفاعلت مع الأغنية ومع صاحب الأستديو وهو يرقص على أنغامها ورددتها عفوياً، وكأنني أخاطب الفندم علي بأن يدور بالجوازات والمكلاّ وكل اليمن ولا يبالي ويقسم الوطنية على مزاجه ما دامت البلاد تمضي في هذه الدوامة والدوران بطريقة مخيفة. وكل مسئول في هذه البلاد يدور بنا في دوامة لا نعرف إلى أين ستنتهي بنا.

في اللحظة نفسـها كأنني اسـتحضرت المدارة في دوعـن وودت أن أشل صوت شـرحي (دور بيها ولا تبالي دور بيها). حتماً عندما أعود إلى دوعن سـوف تكـون لنا أصوات أكثر أهمية من الشـوق والعشـق وسوف ندخل السياسة بعد الذي حصل لي من الفندم علي.

لسـت أدري لماذا دخل هذا الشـخص الأسـتديو بهـذه الصورة وهو يتحامل على أغنية كويتية تردد فيها فرقة ميامي (يا الشمالي يدور بيهـا). وكأن الفرقـة تحاكـي وضعنا في الـدوران بهذا الوطـن بطريقة سـتؤدي إلى الانتحار. ربما هذا المكلاوي الذي دخل الأسـتديو كره كل شـمالي بسـبب الفندم علي الـذي يعمل بالجـوازات والذي يهين كل شـخص ويجرده من انتمائه إلى هذا الوطن. وربما لهذا الشخص حكاية تختلف عن حكايتـي ولكن معاناتنا واحدة وهي الضياع وعدم الاعتراف بوطنيتنا داخل بلادنا، فقد أصبح وطناً للحصان والشـمس. كان حلمـي أن أحصل على جواز سـفر وأسـافر إلى السـعودية أشـق طريقـي ولكن وطنية الفنـدم علي جعلتني بلا جـواز وأيضاً بلا وطن. أضـاع مسـتقبلي فـي الحصـول على حـق مـن حقوقي. صـرت أكره الوحـدة وكل مـا ينتمي إلـى الوحدة التـي جعلت الدكتـور عيدروس خـارج وظيفتـه وأنا خارج وطني، وسـوف أعـود إلـى مدارتي أصنع الأصوات وأرتب صفوف المشترحين وأجعلها على إيقاع واحد.

-10-

قال لي جدي: إن الإنســان لا يكون بكامل أوصافه الإنسانية إلا عندمـا يلتحم بـالأرض وينتمي إليهـا بالعمل والكفاح ويسـقي تربتها بالعرق والدماء، مثلك يا عقرون، فأنت الإنســان الذي ينتمي إلى هذه الأرض وخاصة إلى وادي عقرون الذي تحمل اسمه.

وادي عقرون هو وادي الأولياء، كما يؤكد جدي، ويؤمن جدي بـأن هذا الوادي كان واديـاً للأولياء ومنهم الولـي عقرون. حكى لي جدي عن ليلة كانت السماء غائمة تتلاطم فيها السحب، والبرق يبدد الحلكة، الصواعق والرعود كانت تدوي على رؤوسنا. وقمم الجبال كادت أن تتفتـت أمـام هـذه الأصـوات المصاحبة للرياح الشـديدة. كانت ليلة تخطف القلوب والأبصار، وكنّا لا نرى إلا السواد، ونحن في حيرة ما الذي سـيحل بنّـا في هذه الليلة. كنّـا ندعو الله أن يلطف بنا، فلـم نرَ مثل هذه البراكيـن التي تتنزل علينا من السـماء. صواعق تحـط ثقلها على الأشـجار وتفتتها، ورياح شـديدة مصحوبة بالمطر تقلـع سـقوف البيـوت، وتقلـع الأشـجار، ولا نسـمع إلا أصـوات الأغنـام وهي تهـوي مع جذوع الأشـجار وتتداخل أصـوات الكون كله ولا نميز إلا الرعب. كان الموت منّا قاب قوسين أو أدنى، ولولا أملنـا بالله، والأمل بالحياة لأصبحنا ضحيـة هذه العواصف. لم تهدأ الرياح إلا بعد أن وقف هطول المطر. على مراحل تبدد الظلام، وفي مراحل أخرى رأينا خيوط الفجر تشـرق في السـماء بخجل بعد ليل

عاصف بكل أنواع الأعاصير.

عندما هدأت السماء بدأنا نخرج من جحورنا التي احتمينا بها. فمنا من خرج من داخل صدع، والبعض ظهر من تحت ركام البيوت التي سقطت ولم تؤذِ أحداً بمعجزة من الله إلا القليل من الرضوض، والطين يغطي أجسامهم كأنهم بعثوا من قبورهم لملاقاة ربهم. بيوتنا لا تتجاوز الطابق، صغيرة، ومتهالكة، وكأن العلاقة المتينة التي تربطنا بها جعلت الإصابات عبارة عن رضوض. ارتفعت نسبة مياه السيل، جرس الخطورة يرن في آذاننا، نشاهده أمامنا. ولا ملجأ لنا إلا أن نرتفع من الوادي، ونحاول أن نصمد ونصعد إلى (الجول)(*) فهو المكان الآمن لنا. لم نعتد على هذا الطوفان الذي باغتنا بالمطر والرعود والصواعق والرياح. لم نكد نتنفس الصعداء، وإذا بالطوفان يجرف جزءاً من البيوت ومن تأخر منا كان قدره الموت. طفل وأمرأة عجوز جرفهما السيل. حاولنا أنقاذهما فلم تدركنا أيادينا وأرجلنا بالنهوض من على الأرض الكل كان منهكاً. وما زال الحزن يدق قلبي كلما تذكرت الطفل وهو يبكي والسيل يهبط به ويصعد، يقلبه رأساً على عقب إلى أن غاب عن أنظارنا وصمت الطفل الصمتة النهائية، وإلى يومنا هذا لم نعثر عليه ولا على العجوز.

ارتفعنا إلى اتجاه الجول صعوداً في ليلة يضيء لنا البرق الطريق. كنا نتعثر أثناء صعودنا من الوادي إلى الجول. كان المطر فاجعة. حاولنا أن نمسك بحياة من جرفهم السيل ولكن بلا جدوى. تعثر والدك أثناء محاولته لإنقاذهما، فسقط، وغاب في تموجات

(*) الجول: يطلق على هضبة حضرموت.

السـيل، وأعتقدنا بأن مصيره كمصير من سـبقوه بدقائـق. فقدنا الأمل برجوعـه، ولكـن الله كبير والأمل بوجهـه عظيم. ففـي الصبح بعد أن وصلنا إلى الجول هدأنا ونمنا من الألم والفاجعة. وبعد أن أسـتيقظنا تراءى لنا خيال شـخص من بعيد يقترب منـا، لم نميز ملامحه، ثم لما اقترب منـا كانت الفرحة بعـودة والدك وهو يتوكأ على عصا تسـاعده على المشـي برجلـه المكسـورة. وفي لحظـة الألم، ورائحـة الموت اللتين لم تذهبا منا بعيداً بشـرناه بقدومك، فسـماك عقرون على اسـم هذا الوادي. لقد انبثق اسمك من الألم، فكنت شبه معجزة بأن تحمل اسـم وادي هجرناه للأبد، وسـوف يربطنا اسـمك بمنطقـة عاش فيها أقوام منذ فجر التاريخ.

فـي تلـك الليلـة أصبحت بـلاد (حـم حـار) فـي وادي عقرون مهجـورة مـن البشـر. ويعتبر سـيل تلـك الليلة كمـا يقول جـدي من أعظم السـيول ولـم يُعرف في السـنوات الماضية سـيل بهـذا الحجم، بـل هو طوفان. فقد جـرف كل ما صادفه أمامه مـن البيوت، والماعز، والشـجر، والبشـر، بل كاد أن يطبق على كل الأودية وسـكانها ولكن رحمة الله دائماً حاضرة. بعد السـيل بأيام قليلة، غادرنا (حم حار) بعد أن تفقدنـا بيوتنا الخراب، وتأكدنا أن هذا المكان لا يصلح للمعيشـة. فالمـزارع التـي كنّا نعتمـد عليهـا جرفها السـيل، وأصبحـت الأرض غير صالحة للزراعة. مشـينا سـاعات منحدرين إلـى وادي دوعن، لم نجد من يسـاعدنا وقتهـا. كان منظرنا يرثى له، النسـاء والأطفال كانوا الأكثر خوفاً وتعباً. تفرقنا على قرى وادي دوعن، سكن معظمنا تحت الجبال. ننظر إلى السماء التي لا تخيب رجاء الإنسان لعل الفرج قادم

لا محالـة. نعمل يومياً في أملاك الناس، نخـرج إلى أحواض النخيل، ننظـف النخيل من الشـوائب، نحرث الأرض ونزرعهـا، نحصل على القليل مـن المـال وأحياناً القليـل من الثمـار مقابل عملنـا. نعود إلى الجبـال التي تظلنا، نحاول أن ننسـى تلـك الكارثة التـي حصلت لنا. الكارثـة التي لـم ينطق بهـا الراديو ويخبـر بها الناس عن البشـر الذين أشـرفوا على الموت والشـتات في وادي عقرون، لعل أحداً لا يعرف عنا شيئاً.

صمت العالم وقتها ولـم تفعل لنا دولتنا الوليدة أي شـيء. فنحن الفلاحون فـي حاجة لنظرة ترتقي بحياتنا وحياة أطفالنا. عندما كنّا في عقـرون كنّا نمارس حياتنـا الطبيعية، نزور الأوليـاء، نجلس تحت قبة الولـي (مولى خضم). نتبارك به لعل الخير يأتي على وجهه. فالأولياء لهم مكانـة في حياتهم وبعـد مماتهم. القبـب ترمز إلى الطهـارة التي تسـقف قبور هؤلاء الأولياء. قبل نهاية شـهر رجب نصر على حضور آخر جمعة فيه لزيارة الشـيخ الولي حمد بن عيسى في قيدون. نزحف إلـى الولي حمد بن عيسـى، نتقابل فـي قيدون مع بقيـة الأصدقاء من كل مكان من دوعن فمنهـم من الخريبة، الدوفة، حوفة، بضة، صيف، الهجريـن، المشـهد، فمـن كل مكان يـزور النـاس الولي بن عيسـى. وفي هـذه الزيارة تنحـر الجمال، وتُذبـح الأغنام، وترتفـع الأصوات مغنيـة بالحياة. يبدأ (الشـرح) من الصباح الباكر، وتبـدأ الوجوه تتدفق إلى الزيـارة آتية من كل أصقاع وادي حضرمـوت، لا نعرف إلا صوتاً واحداً وهو صوت الشرح.

يقول جدي إن وادي عقرون سـكنه رجل صالح وسـمي باسمه

أمـا وادي مـراه فهو باسـم زوجة عقـرون التـي ماتت فيـه ودفنت في الـوادي نفسـه. وعقرون ولي مـن أوليـاء الله ومات في الوادي نفسـه الذي سـمي باسـمه ودفن فيه بعد وفاة زوجته بسـنوات. ويُقال عندما تسـيل سـيول عقرون وسـيول مراه تلتقي روح عقرون مـع روح مراه وتتلاحـم السـيول بعضهـا ببعـض وتلتقي، وهـي رحمة مـن الله لهذا الولـي أن يلتقي بـروح زوجته بعد الممات بسـنوات طويلـة، وتكون السـيول من الواديـن هي حلقة وصـل بينهما بعد مماتهمـا. ولا أحد يعرف حقيقة هذه الحكاية من عدمها، ولكن جدي يجزم بأن الحكاية حقيقية وأن للأرض أسـراراً كأسـرار الإنسـان ولا يعرف أسرارها إلا أولياء الله الصالحون.

ولكن جدتي تنفي حكاية الولي عقرون وزوجته مراه. وتؤكد أن ملوكاً عاشـوا في هذا الـوادي منذ آلاف السـنين، وكل ملك في ذلك الزمن يُسـمى الوادي باسـمه، وكلما كان الوادي كبيـراً كان ملكه من الملـوك الأقوياء ويكون قويـاً مهاباً. أما الشـعاب التي تحمل أسـماء الأشخاص، فهي أسـماء لأمراء أو لمقاتلين شجعان، وكانت الأماكن في هذه البلاد لا يطلق عليها إلا أسـماء الأشخاص الذين لهم صفات مميـزة. أي أنهـم يحملون صفـات الكرم والشـجاعة. وعقـرون كان ملـكاً، وكان يسـكن هذا الـوادي مـع قبيلته، وكانـت قبيلته مـن أكبر القبائل لأنها سـيطرت على أهم الأودية التـي لا تنقطع عنها الأمطار، بل يقول البعض إن هذا الوادي كان نهراً عظيماً. فكان الملك عقرون يسـيطر علـى كل وادي دوعـن عبـر التاريـخ وعندمـا يغـزو المناطق المجاورة كان يعود هو ورجـال قبيلته على أحصنتهم العربية الأصيلة

وهذه الأحصنة كانت فريدة السلالة، وانقرضت عندما جفت الأنهار، لأن تلك الخيول لا تشرب إلا من مياه الأنهار. وفي كل غزوة يغزوها الملك عقرون كان يأتي بتلك الأحصنة إلى الأنهار لتسبح فيها وتزيل الدماء التي تطرشت فيها أثناء القتال في المعركة. وكان عقرون وقبيلته يتميزون بالشجاعة وأمتلاك تلك الأحصنة، ولذلك خلد اسمه إلى وقتنا الراهن.

وتضيف جدتي: ومع مرور السنين تدمرت مملكة عقرون بعد وفاته، وضعف رجال قبيلته بعد نزاعهم على الحكم، وسيطرت على هذا الوادي قبيلة أخرى. وعندما هزمت قبيلة عقرون فروا وانتشروا في الأرض ورحلوا إلى فلسطين وأطلقوا اسم ملكهم عقرون على مدينة في فلسطين لكي يخلد على مر التاريخ ويكون اسمه مرتبطاً بأكثر من أرض من أراضي العرب في فلسطين وفي حضرموت، ولكي لا يُنسى هذا الملك العظيم كما تقول جدتي. فوجد عقرون في حضرموت وعقرون في فلسطين. وسوف يخلده التاريخ كما سوف يخلدك يا عقرون.

-11-

عـدت من المكلا إلى دوعـن بعدما أغلقت نوافذ المسـتقبل في وجهي. فحلمي بالسـفر إلى السعودية تلاشى، والحصول على العمل ليس بالسـهولة، فالدولـة الجديدة توفر الوظائف لمـن يأتي من طرف الفنـدم علـي أو عـن طريـق العاصمة صنعـاء، أو مـن يملـك حصاناً على يمينه وشمسـاً على يسـاره. العـودة إلى دوعن تعنـي العودة إلى الـذات. لم أجد أمي، فقـد توفاها الله أثناء تواجـدي في المكلا عندما كنت أبحـث عن حياة كريمة، ولكن لا كرامة لمـن لا يؤمن بالحصان والشـمس. رحلت أمي ولـم ترَ حلمي يتحقق في الحصول على جواز سـفر. فهـل الفنـدم علـي أراد أن يجعلنـا حرافيشَ جـدداً فـي الدولة الجديـدة. الحرافيـش الجدد مقارنـة بالحرافيش القدامـى. خلق نظام صنعاء حرافيشه قبل الوحدة مع الجنوب وبعد الوحدة والانتصار على الجنوب سـعى النظـام إلى أن يحـول مواطني الجنـوب إلى حرافيش جـدد بكل الوسـائل التي يمتلكهـا. كالإقصاء مـن الوظائف، وطمس الهوية، وتغيير مسـميات الشـوارع والمدارس. أرسـل النظام العسكر والحرافيش والطبقة المسحوقة إلى الجنوب فكل هذه الأعمال كفيلة بأن تخلـق حرافيش جـدداً. كل التسـاؤلات تشـغل أفـكاري، بعد ما تعرض له الدكتـور عيدروس من إقصاء وما تعرضت له شـخصياً من طرد من مكتب الفنـدم علي. ماذا يعني أن يناديني البعض من عسـكر النظام بالخـادم، والبعض بالصومالـي، أما المغفلون مـن أبناء بلادي

قـد زرع فيهم النظام ثقافتـه، وأصبحوا ينادونني (يـا صبي) بعدما كان يُحاكم من يسـتخدم هذه الألفـاظ في دولتنا دولـة الجنوب، بل جعل نظـام الفندم علـي القبائل فـي الجنـوب تتناحر وأثـار بينهـا الثارات، وجعـل كل قبيلـة تنظر إلـى الأخـرى بأنها الأسـوأ. زرع فـي قلوبهم الضعف، وبث التفكير الضيق في عقولهم.

طافـت بي الذكريات إلى حياة أمي وصيتها الذي ذاع في الوادي في إتقان الشـرح في المـدارة. حكايـات كثيرة تُحكى عـن أمي وعن الفرقة التي لم تشـتهر إلا بها، عندما كانت من أضعف الفرق الشـعبية في الوادي ولا تشارك في المناسبات إلا فيما ندر. تركت أمي رعايتي، وغابت في دوران المدارة تجوب الوادي والأيادي تتبعها مع أصوات تعيـد الغناء مرات. غابـت عندما كنت في أمس الشـوق إلـى عطفها. فطفولتـي وقتها لا تسـتحق أن أعيشـها بين جدران بيتنا. ولا أسـتطيع أن أحبـس دموع الحيـرة والخوف فـي الليل عندمـا لا أجدها بقربي. فأحياناً أجد نفسـي ألعب مع أقراني من الأطفال بين أشـجار النخيل، والمنجـا التي تحيـط بقريتنا من ثـلاث جهات. أما الجبـل فهو الجهة الخلفية الرابعة التي تحمينا من الرياح، ومن تقلبات الطقس.

أتلمـس وجود أمي فـي ذاكرتي، أعيد جزءاً من شـبابها بشـريط الذاكرة الذي شـغلني اليوم ومضى بي إلى أيام قـد خلت. ففي بعض الليالـي كنت أفيق من النوم بتثاقل أحاول أن أحرك يدي نحو فراشـها لعلي أجدها وتطفئ لهيب شوقي، وفي معظم الوقت لا أجدها بقربي لأن وجودها فـي المدارة يضمن لنـا حياة كريمة بعدمـا غيب الموت والدي مبكراً.

سـمعت خالتي التي تسـكن بعيداً مـن قريتنا، عندمـا زارت أمي ذات يوم تقول لها:

- لا سبيل لك ولأولادك للحصول على المال إلا أن تلتحقي بالفرقة.
- وكيـف أتركهم وما زالوا صغاراً؟ فهم فـي حاجة إليّ، وأنا في حاجة إليهم.
- الجيـران سـوف يهتمون بهـم وسـوف يكبرون مـع الأيام ويكونون لكِ السند في الحياة.

كانت محاولات خالتي الملحّة قـد أقنعت أمي بالحياة الجديدة في المدارة، وشـق طريقهـا لإيجاد لقمـة عيش لأبنائها ليعيشـوا حياة كريمة.

جزء كبيـر من حياتها في الماضي أصبح يشـغلني الآن، وخاصة الجزء المتعلق بالشـرح في المدارة لأنني سـلكت طريقها في المدارة بعدمـا حُرمت مـن السـفر إلـى السـعودية، وأصبحت أهتـم بحضور الأعراس وأنا مع الفرقة. ننتمي إلى هذا الفن الشـعبي المرتبط بذائقة النـاس وحياتهم، عندما تتعالـى أصوات البنادق معلنـة قدوم العريس والعروسة في الحراوة فيكون للمدارة حضورها المتميز.

سـمعت الكثير عن أمي وعن شـرحها الذي يهز المدارة وقلوب المشـترحين أيضـاً. فكانت خفيفة فـي المدارة أثناء الشـرح، تطير في السـماء مع ارتفاع الأيادي، ويلتحق بها الرجال في المدارة، فتهزمهم ولا تستسلم لهم بتلك السـهولة فخروجها المتأخر مع كل صوت من أصوات الغنـاء المختلف وبطريقة منفردة في إنهـاء الصوت الأول أو

الثاني لا يجيده إلا الكبار ومن يملك مهارة كبيرة في المدارة.

سـألت أمي قبل سـنوات عن الشـائب الذي أشـاهده في معظم الأعـراس، فقالت لي بأن لقبه الصقر. عاش طيلة حياته داخل المدارة وكأنه واحد من أفراد الفرقة. تقدم به العمر ولم يغب عن الأعراس إلا في بعض الأوقـات. فكان أصحاب الأعراس يقدمـون له الدعوة قبل الفرقـة إيماناً منهم بأنه نكهة المدارة وغيابه يعني غياب عضو مهم في المدارة. أخبرتني أمي بأن الصقر لم يتزوج طوال حياته، والسبب أهله الذيـن رفضوا أن يزوجـوه من فاطمة لأنهم يقولون بأن فاطمة ليسـت من طيوره فهو من أسـرة عريقة وهي من الأسـر الفقيـرة، وأيضاً لأنها (مشـترحة)(*). فلم ينصع الصقر لأهله عندما اقترحـوا عليه أن يتزوج ببنـت عمه أو أي بنت من مسـتواه. فالصقر لا يصيد إلا الفريسـة التي تقع عينـاه عليها من النظرة الأولـى، ولا يختار إلا اختيـاره فهذه ميزة الصقـور، فكان يرد على أهله بهذا الرد إلـى أن تقدم به العمر وما زال صقراً في نظره ونظر الآخرين.

كانـت أمـي تشـتكي لخالتـي مـن رئيـس الفرقـة الـذي يبتـز (المشـترحات) ببخس حقوقهن، فقـد كان يعطيهن بعـض المكافآت فـي حالة حصولـه على هواجسـه ونظراته التي تخترق الجسـد. كنت اسـتمع للحوار الذي يدور بينهن ولا أفهم معنى الكثير من الكلمات، وعندما أصبحت راشـداً بدأت أعيد الكلمـات التي مرت عليّ أحاول فك شفراتها وأحاول فهم مالم أفهمه من قبل. وقد فهمت من والدتي

(*) المشترحة: المرأة التي ترقص داخل المدارة والرجل يمسك بإحدى يديها ويرقصان معاً رقصاً شعبياً يحضره جمع من الناس. وجمع المشترحة مشترحات.

(المشـترحة) أنها لـم تكن سـعيدة بعملها. كانت تقول لخالتي سعيدة، من ترضـى أن يتـرك أطفالها وتذهـب إلى المـدارة إلا بسـبب الفقر، ونحـن (المشـترحات)، لا أحد ينظـر إلينـا بأننا محتاجـات بل كانت نظرات الكثير من الناس بأننا نذهب للمدارة من أجل الشرح والسلا.

لسـت أدري ما الذي حل بي هذه الليلة؟ أعيد الذكريات، أجدد نشـاط ذاكرتـي فاكتشـفت أننـي أعيش مـع الماضـي، بـكل تفاصيله الصغيـرة والكبيـرة. حتـى همـس النمـل كأنني أسـمعه وأعيـد النظر إلـى حركته المملة بالنسـبة إلـيّ. فكنت أجلس في أحـد أركان البيت الخارجي وأنا أشـاهد النمل يمشـي بطريقـة منتظمة، وأحيانـاً بطريقة عشـوائية وكل مجموعـة متجهـة إلى اتجـاه آخر. نفسـي أعرف كيف تعيش هذه الحشـرات بطريقة غامضة؟ كيف تمشـي في خط مسـتقيم وكأنه طابور عسـكري إلا في بعـض الأحيان يخرج بعـض النمل من هذا الطابور وكأنه تلقّى أوامر عسكرية لتنفيذ بعض المهام الخاصة.

على إيقاع أغنية «مسيكين الغريب وحده»، الأغنية الأكثر شهرة في البلاد، والحاضرة فـي معظم الأفراح، أتذكر صـوت أمي وهي تحتضن أخي عندما كان صغيراً وهي تحاول إسكاته من البكاء وتغني له:

مسيكين الزين وحده أوه يا الله.

وتذرف الدمع وهي تردد مسـيكين الزين وحـده. فمن هو الزين الذي هو وحده؟ فهل تقصد أبي الـذي أصبح في القبر وحيداً، وتعيد تـذكاره بهـذه النغمـة الجميلـة والحزينة، أم تقصـد أخي وأنـا اللذين أصبحنـا وحيدين بعد موت أبي، أو إنها تقصد نفسـها عندما أصبحت بدون زينها أبي؟

سمعت أمي أكثر من مرة وهي تلوم الكبش وتقول إنه هو السبب في موت أبي. «الكبش تحدى أباك بأن يطلع النخلة الأطول في القرية والتي أصبحت خطيرة ولا يطلعها أحد بسبب كبر سنها وطولها الغريب. صعد أبوك النخلة وعندما أصبح قريباً من رأسها انكسرت به وهوى إلى الأرض مع نصف النخلة وماتا سوية. النخلة وأبوك وكأن الله قدر عمر والدك القصير بعمر النخلة الطويل الذي يقول الناس بأنها قد تجاوزت مئة وعشرين سنة».

اشتهرت أمي منذ الصغر بحبها للشرح، فكانت عندما تسمع أصوات المشترحين في المدارة تتسلل من حوش البيت وتختلط بالناس المحيطين بالمدارة، وتستمع للأصوات التي يرددها المشترحون ومن ثم تدخل إلى المدارة وتشترح بصورة تلفت الأنظار. ذاع صيتها عند الناس وخاصة عند أصحاب الفرقة. فخاف عليها جدي من العين، فاضطر إلى حبسها في البيت، ولكن إصرارها على حضور الشرح من خلال تسلّلها من البيت جعل جدي يتنازل عن أفكاره بالعين وأتاح لها اختيار طريقها بنفسها.

كبرت أمي وتركت المدارة بعدما أصبحت أنا شاباً أهتم بها وألبي ما تحتاجه. أصبحت مع الأيام عضواً مهماً في المدارة، ندور الوادي في الأفراح، وأحياناً نذهب إلى المكلا عندما يكون هناك مهرجان ترعاه الحكومة، ويكون إيرادنا المادي شبه جيد. تعلمت فنون المدارة من حركات المشترحين ومن أقراني الذين سبقوني بسنوات للالتحاق بالمدارة.

ذات ليلة مقمرة دخل إلى المدارة ولد صغير لا يتجاوز عمره

العشـر سـنوات كان يشـترح بطريقة رائعة بل أجزم بأن (سكني)(*) قد تلبسـه في تلك اللحظة ولولا السكني لما أشـترح ذلك الولد ورقص بتلك الطريقة التي فاق فيها من سـبقوه سـناً وخبرة بأسرار الشرح في المدارة.

كانت صورته ملائكية، وكانت المشـترحة منسـجمة معه تتموج بجسـمها وتتمايل على أصـوات الأيادي والطبـل والمزمار. لا نعرف مـن أين جاء. أعاد إليّ حكاية أمي عندما كانت صغيرة تنط من حوش البيت لحضور الشـرح في الأفراح، وكان جدي خائفاً عليها من العين ولذلك حبسـها في الدار، ولكن كسرت هذا الحبس بالتسلل ولا أحد يجدهـا، إلا وهي في المدارة تشـترح بصورة مذهلة. يُقال إن السِّـكْن يشـترحون مع الأنس على صوت المزمار، ولذلك نشـاهد من يطعن نفسـه بالجنبية ولا يموت، وهي علامة على حضور السِّكْن وأنهم من أصدقاء السكن الذين يحضرون المدارة عندما يكون الصوت والغناء مميزين.

(*) سكني: جني.

-12-

بدأت أصوات المـدارة تتبعها أصوات المزمـار، الطبل، وأيادي المشـترحين، فتحركـت أمـواج القلـوب تحاكـي الطبيعـة، والجبال، والأشجار، المحيطة بالمدارة وكأنها جزء منها.

نخل في وادي عمر يا ريت للمسكين خيل

يوم بعض الناس ينسون المروة والجميل

لا شيء يسـقط عن هذه الوجوه، كل واحد يبدو مرتبطاً بالآخر، وباللحظة نفسها، تغني الأصوات، تعيد الألم، في لحظة فرح.

تكـرر الأصـوات الشـعر، الغنـاء، مـع كل فقعـة طبـل، ونغمـة المزمار، والوجوه تتماوج مع تقلبات صوت المزمار وتموجاته، أكثر وأكثر.

خاتم سقط من يميني يا عاقلين الذهينة

وفين حصل مثيله يا ناس من بايجيبه

صوت يأتي من داخل الحشـود المشـترحة، يأمر بأن يستمر هذا الصوت لأنه أكثر توهجاً.

«شب على أبوه شب.. شب».

يعيـد الصوت ذاتـه، عن الخاتم الذي سـقط وضاع بيـن الناس، ومـن الذي خطفه وكيف، هل هي الأنثى التي صورها الشـاعر كخاتم أو لـه قصد آخـر؟.. ويعيد الصوت نفسـه «خاتم سـقط مـن يميني يا عاقلين الذهينة».

قابلت أيوب في المـدارة، كالمعتاد لاحظت أنـه ليس كما كان. ليـس أيوب الذي عرفته، فربما هناك سـرٌّ ما جعله يخـرج من المدارة وبخطوات متثاقلة. شـعرت بهزيمة أيـوب الداخليـة، هزيمة لم يعلن عنهـا بعد. فـإذا تراجع في المـدارة وأعلـن هزيمته فيها فسـوف تُنزع منـه الصـدارة بفروسـيتها. كان مكابـراً فـي خطواتـه وصمتـه بألمـه. لأول مرة أرى انكسـاره، وعبراته المختنقة. مضـى بخطوات متثاقلة، جلس بالقرب من المشـترحين تحت نخلة تضلّله سـعفها. كان يتمتم بكلمات فيها أسـرار. خفـت عليه. لم أرَ أيوباً بهـذه الحالة يوماً، فكل هذه التصرفات ليست من عاداته منذ أن عرفته قبل مدة طويلة. فهو لا يستسلم بالخروج من المدارة إلا في آخر صوت غنائي، وقد هزم كل المشـترحين بخبرته وخفة حركته مع المشـترحة وهو يـدور بها وهي تدور حولة كغزالة تخطف الأبصار، وهو يقفز ويعانق السـماء مع كل صفقات الأيادي والأرجل.

اعتاد أيوب الشـرح منـذ الصغر، فكان أبوه يشـجعه على النزول إلـى المدارة، وكلما مـروا بقرية فيها عرس وشـرح كان أبـوه يدفع به وسط الناس حتى يصل إلى يدي المشترحة، وهي تدور به في المدارة تعاطفاً مع صغر سنه.

وكلمـا دار أيـوب دورة خـرج مـن المـدارة للراحـة، وكذلـك للاسـتعداد لجولـة أخـرى بـدون أخطـاء وبـدون خجل مـن بعض الحركات التي يشـاهدها من كبار المشـترحين محـاولاً تقليدهم في دورانهم بخفة، وحركاتهم المتماشـية مع المزمـار والطبل والأيادي التـي ترتفـع وتهوي علـى إيقـاع واحد. فأسـرة أيـوب أعرق أسـرة

في الـوادي توارثت قيادة الفرق الشـعبية، واشـتهر أفرادهـا بفنونهم المتنوعـة فـي المدارة وكان عمه سـالم أشـهر شـخص فـي المدارة شـاعراً مشـترحاً ومزمراً مـن الدرجة الأولـى. وقد رحـل عم أيوب إلى عـدن، ومات في أحـداث 13 ينايـر. حكى لي عن عمـه وقصته الشـهيرة التي وصلت له من طرف أحد أصدقائه الذين كانوا معه في عدن أثناء الأحـداث. فعندما كان بالقرب من معسـكر الفتح أصيب برصاصـة مجهولة المصدر، فكان الرصاص لا يسـكت ويسـتهدف أي شـخص أو أي شـبح يمر فيكون مصيـره الموت. وأثنـاء أصابته صـاح بأصحابـه أن ينقـذوه، ولكنهـم تركـوه بسـبب خوفهـم علـى أنفسـهم وحتميـة أصابتهـم إذا تأخروا خطـوة واحدة فسـوف يكون مصيرهم المـوت بالرصاص الآتي من كل صـوب، ولـم يعرف أحد مصيره إلى اليوم. فهل مات في نفس اللحظة أو تم أسعافه ومات في الطريـق أو مات في المستشـفى؟ كل المعلومات عنه مجهولة، حتى قبره مجهول، كما قال لي أيوب.

عرفـت عن أيوب مغامراتـه في الوادي وحبـه للقناصة، وكذلك تولعه بالبـدواة وكأنه يشـبه البدو فـي حياتهم وتربية الجِمـال ورعيها والتنقـل بها في الأودية للمعيشـة. وهـو أيضاً شـاعر يطرب أصحاب المدارة بأصواته التـي تجعل المدارة ملتهبة. ويُقـال إنه يملك حليلة، وقد جـاءت له (الحليلـة)(*) عندمـا كان في إحدى الأوديـة الصغيرة، ويُشـاع أن الحليلة لا تأتي إلا عندما يكون الشـخص وحده بعيداً عن الناس وعاشـقاً بالدرجة الأولى للشـعر وللشـرح. وعندما كان أيوب

(*) الحليلة: الجنية التي تنشد الشعر على لسان الشاعر.

ماسكاً بالمدروف يولّف أصواتاً وأنغاماً واضعاً عمامته على رأسه ومستلقياً على جنبه فإذا بامرأة على هيئة بدوية جميلة تقترب منه، فلم يخف منها بل جلس ينظر إليها وهي تنظر إليه فعشقَ كل واحد منهما الآخر. وأصبح أيوب من الشعراء الذين ذاع صيتهم بشعرهم ورقصهم في المدارة.

ويُحكى أنه إذا جاءت الحليلة في حالة مخيفة فهذا يدل على أن الشخص طلبها وسعى وراءها وهي لا ترغب فيه، وهذا ما حصل لشخص كان يدّعي أنه شاعر وعندما جاءت إليه الحليلة بشكل مخيف هرب. وكانت حكايته تثير سخرية الناس فيصفونه بأنه رجل خوّاف، لم يصمد أمام امرأة من السِّكْن، فكيف لو كانت أم السكن لمات في اللحظة نفسها.

بعد مرور أيام على حادثة أيوب الغريبة وانسحابه من المدارة بصورة غير معتادة، أخبرني بأن الدكتور منعه من الشرح وتخزين القات لأنه مصاب بالقلب، وإذا استمر فسوف يرهق قلبه أكثر وستكون النتيجة كارثية على حياته.

سألني أيوب، كيف يتخلى الإنسان عن مكانته في الحياة؟ فصمتُّ. سألني مرة أخرى وهو في قمة إرهاقه:

– كيف يزيح الإنسان نفسه عن الحياة؟

كان صمتي رثاء لحالته.

أجابني:

– الإنسان يا عقرون عندما لا يتحدى المرض والمصاعب فهو يقرر القضاء على نفسه ويحكم عليها بالموت وليس

الموت أن نذهب إلى القبر، بل الموت أن تقف في الحياة بلا حياة تذكر.

فقلت له: الإنسان كائن ذكي وعليه أن يتماشى مع وضعه إلى أن يقبض على زمام الأمور وإلا قضى على كل أحلامه.

مرت الأيام وأصبح أيوب يتحاشى حضورالمناسبات، وأحياناً يدخل المدارة ويخرج بسرعة. كان يشعر بانكسار دائم أمام نفسه وأمام الآخرين. وقف عن الشرح مؤقتاً فقط. لم يستمع إلى نصيحة الطبيب، نصحته أكثر من مرة أثناء مشاهدتي له وهو يلهث وينقطع نفسه، ويكح بطريقة مخيفة. كان عنيداً، أستمر إلى أن تعبت حالته أكثر ونقله أبوه كاسترو إلى المكلا للعلاج، ولكن ساعات القدر لا تعرف الانتظار، تخطف من نحب بسرعة، كسرعة البرق.

-13-

في ليلة كانت السماء تغني مع النجوم، خرجت إلى الأرض، وكأنني بُعثت من القبر أو من عالم آخر، وحدي، أشاهد الخراب والدمار الذي حل بالنخيل والأرض. الوجوه التي عرفتها هاجرت إلى السعودية، والشباب في طريقهم إلى الانقراض من هذا الوادي، ولن يبقى إلا العجائز. أنظر إلى ذاتي، ومن ثم أنظر إلى وجه أيوب الغائب والحاضر في مخيلتي والذي رحل إلى جوار ربه، وتركني وحيداً. عصف بأيوب قلبه الذي أُصيب بمرض خطير، والسبب القات الذي يصل إلى بلادنا مرشوشاً بالكيماوي. وكلما تذكرت أيوب في أيامه الأخيرة وهو يذبل أمامي، وتضعف حركته في المدارة تذكرت مريومة التي تزوجها بالسر وبدون علم أبيه. قالها لي أيوب «هذا سر بيني وبينك يا عقرون، فقد تزوجتها، وأنجبت مني ولداً. وأبني يتنقل مع أمه مريومة وجده عبده في الأودية، وكأنه حرفوش. أنا السبب جعلته من الحرافيش، أنا السبب في ضياعه».

جلست في هذا الليل وحدي تحيط بي أشجار النخيل، أتفكر في كل ما يحيط بي، أنظر إلى كل نجمة تضيء هذا الكون العجيب. رأيت الضياع بعينه في هذه الحياة. الضياع الذي سيعيدني إلى عقرون الذي عرفته، عقرون الذي يضرب به المثل في الشجاعة وتحدي المصاعب مثل الولي عقرون كما أخبرني جدي أو كملك عقرون نفسه الذي يحمل صفات الشجعان، كما أخبرتني جدتي. لماذا

أصبحت حياتنـا بهذه الطريقـة؟ تهاجر وجوه إلى السـعودية، ووجوه تأتي من الشـمال تحل في بلادنا، وأنا.. وأنا لمـاذا لم يمنح لي جواز السفر؟ هل بسبب لون بشرتي أو لسبب آخر؟ بلثت القات(*) من فمي ودعسـته برجلي، بصقت عليه، وعلى اليـوم الذي عرفته فيه. نهضت، ونزلـت إلى الحوض، أمسـك بالقـادوم، أحرث الأرض فـي الليل لا أحد معي إلا ألمي. الماء يصل إلى الحوض من العين الجارية، يتدفق أكثـر كلما بـددت العتم. أُهملت هـذه الأرض لسـنوات، والآن أعود إليها ففيها مستقبلي.

يـا الله، أرددها وأنـا أحـرث الأرض، أعيد يا الله مـع كل ارتطام للقادوم في الأرض، تتفجر أحاسيسي بالنصر، النصر على ذاتي وعلى خمولي فـي الحياة، يا الله، ويصـل صوتي إلى السـماء، ويتدفق الماء مـن العيـن بكميات وافرة مـع كل صـوت للقادوم وصوتـي. يتصبّب العرق مـن وجهي، أشـعر بالتعب، أجلـس للراحة، أعـود مرة أخرى للحرث، كلمـا اسـتعدت همتي. هنا الأرض، هنا الإنسـان، وسـوف يكـون رزقـي من أرضـي وليس مـن السـعودية أو أي بلد آخـر، فمن يعـوّل على الآخرين يتيـه في نصف الطريـق، وأنا لا أريـد أن أتيه في الغربة ولا في نصف الطريق، بل أريد أن تكون البداية والنهاية من هذا المكان.. سـوف أقطع وريد حلم الهجرة خارج بلادي، وسوف أزرع الأرض موزاً، وطماطمَ، وفجلاً، وسـوف أتجوّل بمحصولي في قرى الوادي، ولن أهجر هذه الأرض، ولن تظلّلني سـماء غير سماء بلادي التي شهدت مسيرة أجدادي وانتصاراتهم منذ قرون مضت.

(*) بلثت القات: إلقاؤه خارج الفم.

قابلت عائض بعد أيام من حرث بقايا الأرض التي شهدت دماراً شـاملا كبقيـة حيضـان الـوادي، وجدته بالقـرب من المسـجد، الذي يقـع في زاوية القرية، أخبرته بأنني سـوف أذهب إلى دار العم سـرور رحمه الله، وسوف أشـتري من بنته حماراً، وسوف أكون بائعاً للفجل ليكون دخلاً إضافياً لي بعد دخل المدارة. شـعرت بـأن عائضاً متذمرٌ مـن الفكرة ولم يهتم بما قلت له عن خطتي المسـتقبلية. لسـت أدري لمـاذا؟ وكأن عائضاً مخـدرٌ كبقية النـاس في الـوادي. لا أحد يعمل. النخل يموت. الأرض تُهمل، والشـباب تجدهـم يمضغون القات في مناطق متفرقة من الوادي.

وصلت إلى دار العم سـرور، ناديت ابنته الكبيـرة التي أصبحت تبيع الحمير ولكنها لا تتجول بها في الوادي كما كان يفعل العم سرور سـابقاً. فقط تعتني بالحمير في داخل (الوصر)(*) ومن أراد أن يشتري حمـاراً فعليـه أن يأتي ويتفق على السـعر مـع هذه الأسـرة العصامية، التي ضمنت لها حياة كريمة من بيع الحمير. تذكرت حماري الأعرج وأيوباً عندمـا وقفنا قبل سـنوات تحت هذه الدار، ونحـن ننادي على العم سـرور، والآن أنا أقـف وحيداً، يا الله كم هو حزيـن موقفي هذا! الأيام تمضـي وأنا أمضي معها بـكل أنواع الألـم. أخـذت الحمار من بنـت العـم سـرور، شـكرتها وترحمت علـى والدهـا وسـلمتها قيمة الحمـار، ركبت على حماري الأبيض، وكأنه بـرق طار بي في الوادي إلى أن وصلت إلى قريتي.

ذهبـت إلى حوضـي، أعتنـي بالـزرع، سـقيت الأرض، فحصاد

(*) الوصر: الحوش.

الفجـل سـيكون وافراً هـذه السـنة. ودخلي المادي سـوف يتحسـن. وعندما أنتهي من عملي في الأرض، أذهب كل يوم إلى العم منصور، وهو رجل كبير في السن يعمل صائغاً للفضة. أدخل إلى قلب الحجل قبل الوصول إليه، أربط حماري بالقرب من مصوغته، ومن ثم أدخل، أجده كالعادة جالسـاً يعمـل في الفضة، وأحياناً يضـع على (بنادق)(*) البدو رسـمات كزينة، وأيضاً يضع لمسـاته على (الجنابـي)(**) لتظهر بصـورة أنيقة. العم منصور دائماً صامت لا يثرثر كثيراً فقط يسـأل عن الحال ويصمت وهو يعمل لا يرفع رأسه إلا إذا أراد أن يأخذ من الرف قطعة لهـا صلة بالعمل، أو للراحة. تتكـون المصوغة من طابق طيني، والنوافذ خشـبية مطلية بعبق الماضي، تشرف المصوغة على الساقية، ومن ثم تشاهد أمامك النخيل بعدد كبير، أما من النافذة الجانبية فترى ممراً ضيقاً يـؤدي إلى (مطاريق)(***) قديمة تـؤدي إلى الديار القديمة المتهالكـة التي هجرهـا أهلها. هذه القريـة الصغيرة تسـكن فيها فقط أسـرة منصـور صائـع الفضة وأسـرة أخـرى تعمل فـي الزراعـة ولها أهتمام كبير بتربيـة (النوب) النحل. عندما أكون في هذه القرية أشـعر بأنني في جو هادئ. وقار غريب يسـكن هذا المكان، وكأن من سكن هذا القرية فـي القديم أولياء، وهذا السـكون والوقار مـن آثارهم بعد رحيلهم، لأن بقايـا الصالحين لا تطويها الأيـام وآثارهم تبقى كبصمة حضور. سألت العم منصور ذات يوم عن عمله، ولماذا لم يهاجر مثل

(*) البنادق: نوع من أنواع السلاح، ومفردتها بندقية.

(**) الجنابي: الخناجر، ومفردتها جنبية.

(***) المطاريق: الأزقة.

البقية إلى السعودية، فكان جوابه: «هذه المهنة عملت بها أكثر من أربعين عاماً، كونت أسرتي وعلمت أولادي، وعندما كبروا هاجروا إلى السعودية، وبدلاً من أن يعملوا معي ويطوروا عملي تركوني وحيداً مع هذه الجدران، أقتات معيشتي من العمل في الفضة التي لها زبائنها، ولكن سوقها تراجع كثيراً. وأكمل حديثه عن الهجرة بعد أن سكت لثوانٍ: «وكأن الناس أصابهم جنون الهجرة».

ثم قال: «اعمل في بلادك وارضَ بالقليل، تأتِك الصحة والعافية. أما الكثرة في المال فتجلب مرض الأجسام ومرض الغرور. فالحمد لله فقد رضيت بالقليل وأنا أعيش معززاً مكرماً في بلادي. الغربة ضياع يا عقرون، وبعد الضياع ذل».

دارت بي الدنيا عندما قال بعد الضياع ذل. هذا حكيم، وصمته أثناء عمله، يدل على حكمة ورثها عن أسلافه.

جاء ظافر أثناء حديثنا. رحب به العم منصور ترحيباً حاراً. لست أدري ما هو سر هذا الترحيب إلا عندما ناداه يا مرحباً بالفنان. وبعد أن أعد لنا الشاي، سحب ظافر عوده وبدأ يعزف على أوتار العود، فبدت السعادة على وجه العم منصور، وظافر يدندن بمقاطع متنوعة، لكن الأغنية التي أطربتني:

ودعتك وأنا ما بغى أودعك
ودعتك وفي قلبي يا حبيبي موضعك
باسم الوفاء والمحبة والحنين حافظ على عهدي
حتى ولو طال بُعدي يا ضنين لا يوحشك بُعدي

أشاهد الدمع في عينيه وهو يغني كأن وراء أنغام عوده وصوته

الفريـد حكاية حب وعشـق فريد. قال لنـا إنه يجيد اللغـة الإنجليزية. حكـى لنا جـزءاً من حياته وحبـه لكل ما هـو جديد فبدأ يهتم بسـماع محطـات الراديو باللغـة الإنجليزية عندمـا كان مغترباً في السـعودية. وقـال: كان زملائـي فـي السـكن يسـخرون منـي ويقولـون لـي (عبد ويبغـى يتعلـم إنجليـزي) وأحيانـاً يقولـون العبد عبـد لم ولـن يتعلم أبـداً. ويتهمونـني بأننـي إنسـان متعـرض أي فضولـي لا أفهـم شـيئاً على الإطلاق. قـال لي: تعلمت يا عقـرون اللغـة الإنجليزية بجهدي الخـاص، وعملـت فـي أكبـر الشـركات فـي جـدة وكنت أمثـل هذه الشركات في الخارج. ولولا حرب صدام الأخيرة مع الكويت لكنت كما أنا في جدة. فأثناء رجوعي من الخارج لم يسـمحوا لي بالدخول إلى جـدة برغم أن إقامتي ما زالت سـارية المفعول، والسـبب وقوف علي عبد الله صالح مع صدام حسين ضد الكويت.

صوته ملائكـي نقي تماماً كنقـاء المطر النازل من السـماء الذي يطهر حياتنا من العثرات والآثام. يدندن بصوت حزين، وكلمات أكثر حزناً فيها شـوق لمدينة جدة يغازل بكلماته أسماء لها مكانة في قلبه. حكـى للعم منصور ولي عن علاقته بالفنان مرسـال الـذي كان يزوره في شـقته فـي حي الصحيفـة كلما جاء إلـى جدة ويسـهرون معاً على أصـوات الفن. قال عـن الفنان مرسـال بأنه الصـوت الوحيد الصادق الـذي يغني بجـودة فريـدة يحلق بصوتـه في سـماء طاهرة لـم يلوثها مكياج الفن المزيف.

أخبـرت ظافر عن جزء من حياتي وعن ظروفي القاسـية وتيتّمي في سن مبكرة جعلني أمتهن أكثر من مهنة.

أدور في حياتي أكثر من دورة، وبألم يختلف عن آلام الآخرين. فدورتي في المدارة هي دورة الألم، والصراخ الداخلي الذي لا يسمعه غيري. عشقت الشرح في المدارة من عشق أمي له، أمي التي كان يُضرب بها المثل في خلق أجواء أكثر حيوية في المدارة على أصوات غنائية مختلفة كالهبيش، الغياضي، والقبلي. فصوت القبلي الأكثر خفة في الإداء والذي تميل إليه والدتي أكثر.

أتفرغ للمدارة أثناء مواسم الأعراس، وعندما لا يكون في الوادي أي عرس أقوم بأعمال مختلفة كعامل بناء، نبني بيوت الناس، ونرمّمها، ولا نجد من يرمّم جروحنا وقلوبنا. هي الحياة، أعيشها بألم لا ينطق.

أزرع الفجل في حوضي، وأعتني به، فهذه المهنة استفدت منها وأنا أتنقل في الوادي بحماري الذي سميته البرق لخفته منادياً على أصحاب البيوت:

الفجل.. الفجل.. الفجل..

أعيد بصوتي منادياً على من في الديار، الفجل، الفجل، فينتقل صوتي إلى الديار، يخترق الجدران أو أنه يتسلل عبر (الخلف) النوافذ ولا أرى إلا النوافذ تنفتح وتنادي عليّ النسوة بالوقوف لشراء بعض حزم الفجل.

يا عقرون انتظر، والأخرى يا عقرون أوقف، وأنا أستمع لنغمات أصواتهن المختلفة ومن الصوت أخمن هل هي شابة أو كبيرة في السن. أصبحت أختبر نفسي، وأختبر الأصوات المنادية عليّ. ففي أغلب الأوقات يكون تخميني صائباً. فالصوت دليل إلى عمر المرأة

فكلمـا كان رقيقـاً، كان عمرها صغيـراً، فرقّة الصوت مـن رقة الطبع. عشـقت تلك الأصـوات والوجوه التي تسـتقبلني بطيـب خاطر. ففي حـالات كثيرة تكرمنـي إحداهن بمبلـغ إضافي وخاصـة عندما يكون زوجها أو أبنها مغترباً في السـعودية. أفرح بالمبلغ الزائد، وأذهب في طريقي مغرداً بصوتي:

الفجل.. الفجل.. الفجل..

أشـعر بصوتي يصـل إلى السـماء وأنا أنـادي الفجـل.. الفجل. يرجع صوتي إليّ مباركاً من الملائكة لأنني عدت إلى صواب الطريق في زرع حوضي، وأسعى وراء رزقي في أرض عقرون، الملك العظيم الذي كان يحكم هـذا الوادي، أعدت حكاية جـدي وجدتي مع ذاتي وشـعرت بأنني أنا الملك عقرون الذي سيحافظ على النخيل وزراعة الأرض ولـن يتركهـا للأيادي تعبث بهـا. تحررت من عقـدة الهجرة، وأقلعت عن مضغ القات ودعسته تحت أقدامي، لأن حكومة الشرعية تريـد أن تخدرنا وتطمـس هويتنا. أمضـي في طريقي أجـوب الوادي وأعيد بصوتي الفجل.. الفجل.. الفجل.

وبرغم بساطة عملي إلا أني أشعر بأنني حر، أطير.. أطير.. أطير.

للتواصل مع الكاتب

batawil@gmail.com